علماء العرب 29

الخليل

أبو المعاجم العربية

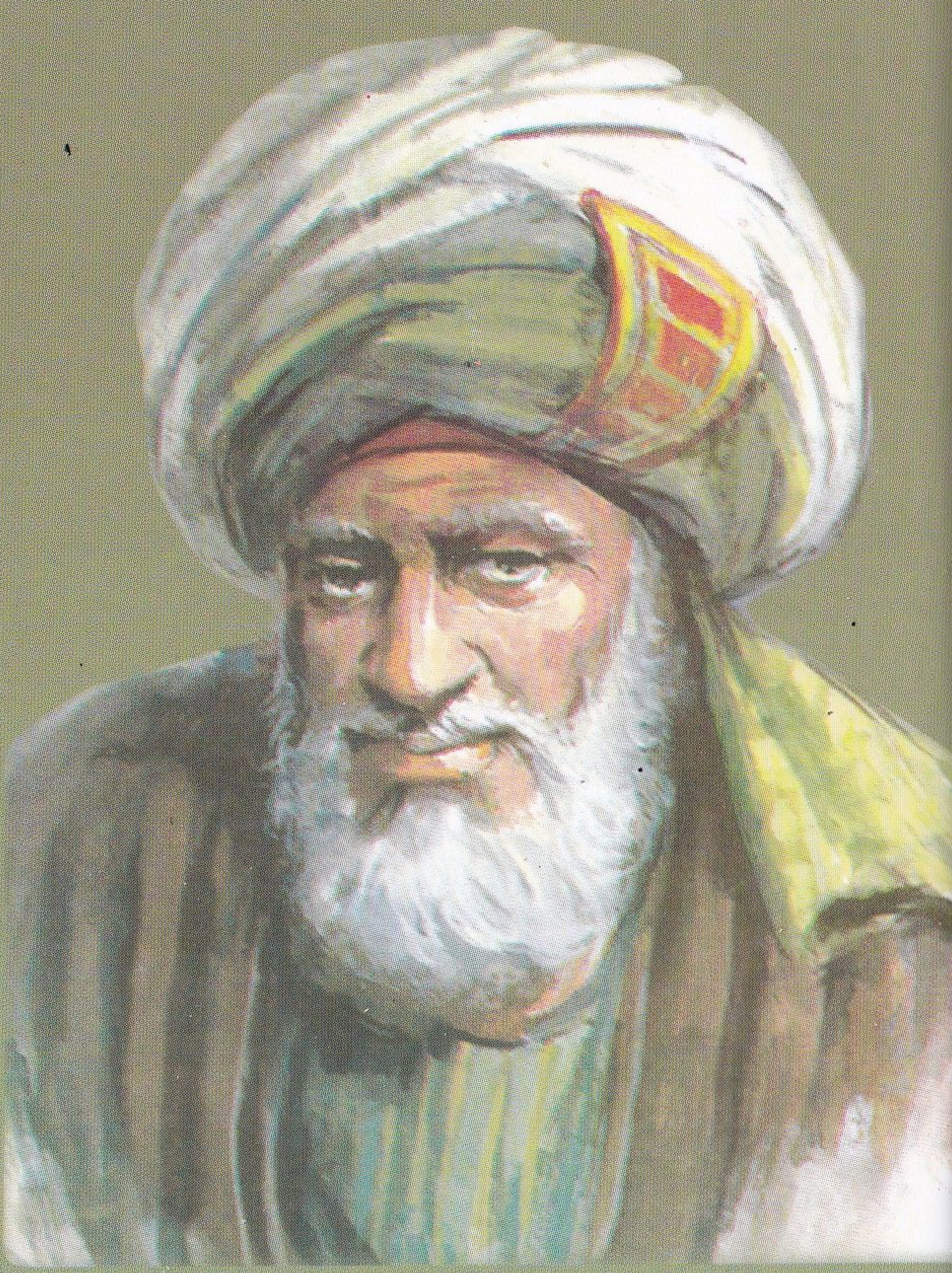

تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

منشورات ANEP

علماء العرب

الخليل

أبو المعاجم العربيّـة

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الكتاب : **الخليل**
سلسلة علماء العرب
المؤلف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب
تصميم الغلاف : بديعة ميدات
الناشر : **منشورات** ANEP

50، شارع خليفة بوخالفة – الجزائر
الهاتف/فاكس : 213 21 23 89 61 / 213 21 23 64 85
الهاتف : 213 21 23 68 32 / 213 21 23 89 16
فاكس : 213 21 23 64 90
e-mail: editionsanep@yahoo.fr

الطبعة الأولى 2007
ISBN : 978-9947-21-333-9
Dépôt légal : 1528-2007

جميع الحقوق محفوظة لمركز الأهرام للترجمة والنشر

فِي مَسجِدِ البَصْرَةِ

ذاتَ صَباحٍ، دَعَا أَحمَدُ ابنَهُ الخليلَ إليهِ، وقالَ لَهُ:

- مِنَ اليومِ يا بُنَيَّ، ستَبدأُ حِفظَ القُرآنِ الكَريمِ.

وتبعَ الخَليلُ أباهُ، وسارَ بجانبِهِ فِي شَوارِعِ البَصرَةِ، حتّى دَخلا مَعًا مسجِدَ البَصرَةِ الجامعَ الكَبيرَ. وتَوَقَّفَ أحمَدُ عندَ حلقةٍ بِهَا صِبيةٌ، يُحيطونَ بِقارِئٍ مُعلِمٍ لِلقُرآنِ، وقالَ لَهُ:

- أيُّهَا الشَّيخُ. هَذَا إبنِي الخَليلُ، جِئتُ بِهِ إليكَ، لِيحفَظَ القُرآنَ الكَريمَ عَلى يَديْكَ.

وتَركَ أحمدُ ابنَهُ الخَليلَ مُغادرًا المَسجدَ، وكَانَ الوَقتُ ضُحًى. وجَلَسَ الخَليلُ بينَ صبيةِ البَصرَةِ. كانَ يَعرِفُهمْ بالاسمِ وَاحدًا وَاحدًا، فَطالَمَا لَعبَ مَعَهُمْ في ساعَاتِ النَّهارِ، في حَاراتِ البَصرَةِ، وشَوارعِهَا، وتحتَ أشجارِ النَّخيلِ المُحيطَةِ بالبَصْرَةِ، وطَالَمَا سَبحَ مَعَهُم في جَداوِلِ البَصرَةِ، ونُهَيْراتِها، واستَظَلَّ وإيّاهُمْ بِظلالِ الأشجارِ في حَدائِقِهَا، ولَسَوفَ يُعاوِدُ اللَّعِبَ مَعَهُمْ عَصرَ كُلِّ يومٍ، وإثْرَ صَلاةِ المَغرِبِ.

وراحَ الخليلُ يَتَأمَّلُ مَا حولَه في المَسجِدِ، أعمدَةَ المَسجِدِ الرُّخاميةِ الشَّامخةِ، والمِحْرابَ المَهيبِ، والجوَّ الدينيَّ السَّاحِرَ، ويَرقُبُ من بُعد حَلَقاتٍ أُخرَى للدَّرسِ بمسجدِ البَصرَةِ، وقد تَحلَّقَ (أحاطَ) طُلاّبُها الأكثَرُ سِنّا منهُ، حَولَ عُلماءٍ لِلُّغةِ، وعُلماءٍ في الدِّينِ، وهُمْ يَنصِتُونَ إليهِمْ باهتِمامٍ، ويَكتُبونَ مَا يَسمَعونَهُ منهُمْ بحِرْصٍ. وفَكَّرَ الخليلُ أنّهُ سيُصبِحُ وَاحدًا منهُمْ، حينَ يَتِمُّ حفظَهُ للقُرآنِ الكَريمِ. وكَانَ الخليلُ قَد تَعَلَّمَ القِراءَةَ والكِتابةَ، ومَبادِئَ الحِسابِ عَلى يَدِ أَبيهِ.

وانتَبَهَ الخَليلُ عَلى صَوتِ معلِّمِ القُرآنِ يَقولُ لَهُ:

- تَعالَ يَا خَليلُ، واجْلِسْ بِجانِبِي.

ونَهَضَ الخَليلُ وجَلَسَ بجانبِهِ، فَقالَ لَهُ مُعَلِّمُ القُرآنِ:

- خُذْ هَذَا المَصْحَفَ. وحَافِظْ عَلَيهِ، فَهُوَ مُصحَفُكَ مِنَ اليَومِ.

ثُمَّ قالَ لَهُ:

- الآنَ. افتحِ المصحفَ عَلى سُورةِ الفَاتِحَةِ، وأَسمِعنِي قِراءَتَكَ للقُرآنِ.

كَانَتْ كِتابةُ المصحَفِ آنذاكَ، تُكتَبُ بِحبرَينِ: حبرٌ أسودُ للحروفِ المَنقوطَةِ، وغيرِ المَنقوطَةِ، وحبرٌ أحمرُ لعلاماتِ التَّشكيلِ. وكَانَتْ هَذه العَلاماتُ: نُقطةٌ حَمراءُ عَلى يَمينِ الحَرفِ تُفيدُ الفتحَةَ، ونُقطةٌ حَمراءُ عَلى يَسارِ الحَرْفِ تُفيدُ الضَّمّةَ، ونُقطةٌ حَمراءُ أسفَلَ الحَرفِ تُفيدُ الكَسرةَ. وكَانَ «أبو الأَسْوَد الدُّؤَلِيّ» هُوَ الذي وَضَعَ نقطًا سَوداءَ للحُروفِ العربيّةِ المَنقوطَةِ، ولَم تَكُنْ الكِتابَةُ العربيّةُ بِهَا حُروفٌ مَنقُوطةٌ قَبلَهُ، وابتَكَرَ نقطًا حَمراءَ لتَشكيلِ الحُروفِ فِي الكَلِماتِ العَرَبيّةِ، فَيَسَّرَ «أبو الأَسْوَد» بِصنيعِهِ (عَمَلِهِ) هَذَا القِراءَةَ للقارِئينَ، والكِتابَةَ للكاتِبينَ.

وأتمَّ الخليلُ قراءَةَ الفاتحةِ، والرُّبعَ الأوَّلَ من سورةِ البقَرةِ، وكانَ مُعلمُ القُرآنِ يهزُّ رأسَهُ مَعَ قِراءَةِ الخَليلِ، راضيًا عَن قراءَتِه، وحُسْنِ مَخارجِهِ للحُروفِ، والتزامِه بعلاَماتِ التَّشكيلِ، وجَوْدةِ مدّهِ للحُروفِ الممدُودَةِ، وإدغامِهِ للحُروفِ المُدْغَمَةِ. وقالَ مُعلّمُ القرآنِ للخَليلِ:

- أحسنْتَ القِراءَةَ وترتيلَهَا يَا بُنَيَّ. ممَّنْ تَعَلَّمْتَ حُسْنَ القِراءَةِ للقُرآنِ؟

فَقالَ لَهُ الخَليلُ:

- مِن أبِي يَا مُعَلّمِي.

فَقالَ مُعَلّمُ القُرآنِ:

- كَمْ تقدِّرُ لِنفسِكَ أَنْ تَحفَظَهُ مِنَ آياتِ القُرآنِ يَا بُنَيَّ ؟

فَقالَ لَهُ الخَليلُ:

- سَأحفَظُ رُبْعًا من أرباعِ القُرآنِ في كُلِّ يومٍ، فَأنَا سَريعُ الحِفظِ يَا مُعَلّمي. واسْأَلْ أبي؟

فَضَحِكَ مُعلّمُ القُرآنِ، وقالَ لِلخَليلِ:

- سَنَرى غدًا قُوّةَ حِفظِكَ. باركَ اللّهُ فيكَ يَا بُنَيَّ، لِلقُرآنِ، ولِلُغَةِ القُرآنِ.

عَلِّمهُ أنتَ

عادَ الخَليلُ إلى بَيتِه إثْرَ صَلاةِ الظُّهرِ، وفي اللَّيلِ جلسَ إلى أبيهِ، وراحَ يُسمِعُ لَهُ سورةَ الفاتحةَ، والرُّبعَ الأوَّلَ من سورةِ البقَرةِ، ولَم يُخطِئْ في قِراءَتِه في كَلمَةٍ أَو حَرفٍ أَو ضَبطٍ لِحرفٍ. وقَبَّلَ أحمدُ رأسَ ابنهِ سَعيدًا بِه. وراحَ يُحَدِّثُهُ عَن قَومِه من بَني الأزدِ (قَبيلةٍ عَربيّةٍ) ودَورِهم في الجهادِ مَعَ الخُلَفاءِ الرَّاشدينَ، وعَنِ الحُروبِ الدَّائرةِ بَينَ المُسلمينَ والرُّومِ، في ديارِ البيزَنطيّينَ (تُركيا الآنَ)، والخَليلُ يُنصِتُ إلى حَديثِه بِشَغَفٍ (باهتِمامٍ شَديدٍ).

وتَذكَّرَ الخَليلُ أمرًا ضَحِك لَهُ، فَقالَ لَهُ أبُوهُ:

- مِمَّ تَضحكُ يَا بُنَيَّ؟

فَقالَ لَهُ الخَليلُ:

- مِن صَبيٍّ فارِسِيٍّ مُسلمٍ، يَحفَظُ مَعَنَا القُرآنَ، ولاَ يُحسِنُ نُطقَ بَعضِ الحُروفِ العَربيّةِ، ومُعَلّمُ القُرآنِ حائرٌ مَعَهُ، يُكرِّرُ لَهُ النُّطقَ الصَّحيحَ للحَرفِ، فينطقُه بِلكنَةٍ أعجَميّةٍ (فارسية) نَضْحَكُ منهَا.

فقالَ لهُ أبوهُ:

- يا ولَدي. ترفَّقُوا بِهِ، ولاَ تَسْخَرُوا منهُ، أو تَضحكُوا عليهِ. وعلِّمهُ أنتَ النُّطقَ الصَّحيحَ لِكُلِّ حرفٍ عربِيٍّ.

فقالَ لهُ الخليلُ بلهفَةٍ:

- كيفَ، فأنَا حقّاً أُشفقُ عليهِ، فهُوَ إنسانٌ مِثلُنا.

فقالَ لهُ أبوهُ أحمدُ:

- اجعَلْهُ ينطقُ أيَّ حرفٍ ساكنًا، وقبلَهُ همزةٌ مكسُورةٌ. هكذا: إقْ. إكْ . إلْ. إعْ. وسوفَ ينطقُ جميعَ الحُروفِ سليمةً، بهذهِ الطَّريقةِ.

ونَجحَ الخليلُ في تعليمِ ذلكَ الصَّبيِّ النُّطقَ الصَّحيحَ للحُروفِ العَربيّةِ، بطَريقةِ أبيهِ، وسعِدَ مُعلِّمُ القُرآنِ بنجاحِ الخليلِ. وصارَ الخليلُ، وذلكَ الفتى الفارسيّ صاحِبيْنِ وصديقَيْنِ. وفُتحتْ لهُ أبوابُ بُيوتِ الأُسرِ الفارسيّةِ، التي أسلَمتْ، ونزحتْ (رَحلتْ) عن بلادِهَا إلى البَصرةِ، لتَعيشَ مَعَ عَربِ البَصرةَ المُسلمينَ، جَنبًا إلى جَنبٍ.

وكانَتِ البَصرةُ مَدينةً عربيّةً حديثةً، أنشأَهَا العربُ، بمُقابلِ مَدينةِ سيرافِ الفارسيّةِ، عِندَ مُلتقَى النَّهرِ العَربيِّ بالخليجِ

العَرَبيّ، جَنوبيَّ العراق. وكانَتْ بُيوتُ المَدينةِ ذاتَ أحجارٍ بيضاءَ، لاَ يَزيدُ عُمرُهَا بَعدُ عن اثنَيْنِ وتسعينَ عامًا، مُنذُ أنْ أنشأَهَا القائدُ العَرَبيُّ «عُتبة بن غزوان»، في العَامِ السّادسِ عشَرَ الهجرِيّ.

سيفٌ وفرسٌ

أَتمَّ الخليلُ حفظَ القُرآنِ الكَريمِ في مائَتينِ وأربعينَ يومًا، وأحسنَ تَرتيلَهُ بِصوتٍ رَخيمٍ (حلْوٍ)، وأقبَلَ مُعلِّمُه على بيتِ الخَليلِ مَعَ طُلاّبهِ الصِّغارِ، مُهنِّئينَ أباهُ، بِختَمِه لكتابِ اللّهِ، وقَدْ أقامَ أحمدُ لهُمْ وليمةً منَ الثَّريدِ بالمَرقِ (الفتة) واللَّحمِ المَشويِّ، والحَلْوَى المُلوَّنة، وتَصدَّقَ بمالٍ على فُقراءِ البَصرَةِ، ابتهاجًا بحفظِ ابنه للقُرآنِ الكَريمِ. وقالَ مُعلِّمُ القُرآنِ لوالدِ الخليلِ:

- لَمْ أرَ أحدًا من أبناءِ البَصرةِ أحسَنَ ذاكِرَةً، ولاَ أكثَرَ ذكاءً من ابنِكَ الخَليلِ. وإنّي لأتَنبَّأُ لَهُ بِشأنٍ علميٍّ عظيمٍ، في مُقبلِ السِّنينَ.

وحينَ انتهَى فَصلُ الصَّيفِ، بِحرِّهِ الشَّديدِ الرَّطْبِ، على طُولِ سَواحلِ الخليجِ العَربيّ، راحَ الخليلُ يَتردَّدُ على حلَقاتِ الدَّرسِ العلميّةِ بمسجدِ البَصرَةِ، وقَدْ هجَرَ اللَّعبَ في النَّهارِ، وجَلْساتِ السَّمَرِ في اللَّيلِ، وأقبَلَ بِعشقٍ (بِحُبٍّ) على حلَقاتِ الدَّرسِ

المُستَديرَةِ، التي تُحيطُ بعُلَماءَ أساتذَةٍ عظامٍ، يُعرفُونَ في أنحاءِ العراقِ باسمِ: المَسجديُّونَ، وراحَ يَستَمِعُ إلى دُروسِ التَّفسيرِ والحَديثِ، والنَّحوِ والشِّعرِ. وكَثيرًا ما كَانَ الخليلُ يَرى، في مَسجِدِ البَصرَةِ، صَحابَةً من أصحابِ رَسولِ اللّهِ الأحياءِ، فَتَقدَّمَ إليهِم الخليلُ مُصافِحًا، ويَسأَلُهُم فيُحدِّثُونَهُ وصَحبَهُ عن طُلّابِ العِلمِ، عَن الرَّسولِ، والخُلَفاءِ الرَّاشدينَ، وكَيفَ نَجَحُوا في تَوحيدِ العَرَبِ، ونَشرِ الإسلامِ في جزيرَةِ العرَبِ، وفي الشَّامِ، ومِصرَ، والعِراقِ. وكَثيرًا ما كانَ الخَليلُ يَرى مُعَسكَراتٍ للجُنودِ تُقامُ خارجَ البَصرَةِ، ثُمَّ تَرحَلُ إلى أقصَى الشَّرقِ أو أقصَى الشَّمالِ من بِلادِ فارسٍ، للمُشارَكَةِ في الفُتوحِ والجِهادِ، تَحتَ راياتِ الإسلامِ، للخُلَفاءِ الأمويِّينَ.

ولَم يَكَدِ الخَليلُ يُتِمُّ دِراسَتَهُ لعُلومِ اللُّغَةِ والدِّينِ، وكَانَ قَد بَلَغَ العِشرينَ من عُمرِهِ، حَتّى جاءَ الخَبَرُ إلى أميرِ البَصرَةِ، بدَعوَةِ أهلِ البَصرَةِ للمُشارَكَةِ في دَفعِ خَطَرِ الرُّومِ عن دِيارِ الشَّامِ، والانضمامِ إلى جُيوشِ المُجاهِدينَ في الشَّامِ. وانطَلَقَ المُنادي في أرجاءِ البَصرَةِ، يَدعُو شَبابَ البَصرَةِ للمُشارَكَةِ في الجِهادِ.

وَأسرَعَ الخليلُ بِالعَودةِ إلى بَيتِه، ورَأَتْهُ أُمُّهُ يُخْرِجُ سَيفًا مِن سُيوفِ أَبيهِ مِن غِمْدِه، وقَد راحَ يَصقُلُه ويَجلُوهُ، عَلى مِسَنٍّ مِن حجرٍ أَملَسٍ، حَتّى صارَ حَادَّ الشَّفرَةِ.

وقالَ الخليلُ لأَبَوَيْه:

– سَأَذْهَبُ مَعَ شَبابِ البَصرَةِ، لأُجاهِدَ في ثُغُورِ (بِلادِ الحُدُودِ) الإسلامِ، مُدافِعًا عَنِ المُسلِمينَ.

وأَعَدَّتْ لَهُ أُمُّهُ زادَهُ وثِيابَهُ، وقَدَّمَ لَهُ أَبُوهُ فَرَسًا مِن أَفراسِ الحَربِ، ودَعَا لَهُ الأَبَوانِ بِالنَّصرِ، وبِالعَودَةِ إِلى البَصرَةِ، سَالِمًا وغَانِمًا.

وعَجِبَ الأَبَوانِ مِن أَمرِ الخَليلِ، حِينَ رَأَيَاهُ يَحمِلُ مَعَهُ، وَهُوَ في طَرِيقِه إلى الجِهادِ، كُتُبًا شَتّى مَنسوخَةً، مِن كُتُبِ المَسائِلِ في النَّحوِ العَرَبِيّ، فَلَمْ يَكُن النَّحوُ قَد صارَ عِلمًا مُكتَمِلاً بَعدُ.

أنا صنع يديك

بَعدَ عامَيْنِ، عادَ الخَليلُ مِنَ الشّامِ، ولَم يَكَدْ يَضَعُ عُدَّتَهُ وسِلاحَهُ، ويَربِطَ عِنانَ (لِجامَ) فَرَسِه في وَتَدٍ خَشَبِيٍّ، بِجِدارِ سَاحَةِ البَيتِ، حَتّى أَقبَلَتْ عَلَيهِ أُمُّهُ مُعانِقَةً، مُهَنِّئَةً إِيّاهُ بِسَلامَةِ

العَودَةِ، وكَانَتْ تَبكي، وظَنَّ الخَليلُ أَنَّهَا تَبكي لِفَرَحِها بِعَودَتِه، لَكِنَّ شَيئًا رابَهُ (أَثارَ شَكَّهُ) في وَجهِهَا، فَسَأَلَهَا عَن أَبيه، فَأَخبَرَتْهُ وهِيَ تَبكي أَنَّهُ قَد وَدَّعَ الدُّنيَا، وانْتَقَلَ إلى رَحمةِ رَبِّه.

وحَزِنَ الخَليلُ أَيّامًا، لأَنَّهُ لَمْ يَرَ أَباهُ في عَودَتِه، ولَمْ يُتَحْ لَهُ أَنْ يُوَدِّعَهُ، فَجَلَسَ حَزينًا أَيّامًا عَديدةً. وذَاتَ صَباحٍ غادَرَ البَيتَ، واتَّجَهَ إلى مَسجِدِ البَصرَةِ، واختارَ حَلقَةً لِدُروسِ اللُّغَةِ، يَتَصَدَّرُهَا العالِمُ «أَبو عَمرو بنُ العَلاء». وراحَ يَستَمِعُ إلى مَا يَقولُهُ هَذا العالِمُ الجَليلُ، يَسمَعُ ولاَ يَسأَلُه، ويَسأَلُه أَبو عَمرُو فَيَلزَمُ الخَليلُ الصَّمتَ ولاَ يُجيبُ، حَتّى ظَنَّ أَبو عَمرُو أَنَّ الخَليلَ قَد صارَ طَالِبًا مَحدودَ الذَّكاءِ، وأَنَّهُ قَد نَسِيَ مَا عَلَّمَهُ لَهُ قَبلَ سَفَرِه لِلجِهادِ، ولَنْ يَكونَ عالِمًا مِن عُلَماءِ النَّحوِ. ورَأَى الخَليلُ وَميضَ السُّخرِيَةِ مِنهُ، والرِّثاءِ لَهُ، في عَينَيْ أُستاذِهِ. فَفاجَأَهُ بِسُؤالٍ في نَحوِ العَرَبِيَّةِ، تَلْوَ السُّؤالِ، ولَمْ يُجِبْ أَحَدٌ مِن زُمَلاءِ الدَّرسِ أَبَا عَمرُو عَن أَيِّ سُؤالٍ، وراحَ الخَليلُ يُفاجِئُ الجَميعَ بِالأَجوِبَةِ عَن كُلِّ مَا سُئِلَ عَنهُ. ورَأَى الخَليلُ أُستاذَهُ وقَد كَسَا الوُجومُ (الصَّمتُ الحَزينُ) وَجهَه، فَالخَليلُ قَد صارَ أَكثَرُ عِلمًا بِالنَّحوِ مِنهُ، وتَلاميذُهُ قَد شَهِقُوا إِعجابًا بِالخَليلِ، وراحُوا يَتَهامَسُونَ فِيمَا بَينَهُم، وسَمِعَ الخَليلُ هَمْسَهُم وهُم يَقولُونَ:

- صارَ الخَليلُ أعلمَ من أُستاذِنَا بلُغةِ العَرَبِ.

وعِندئذٍ نَهضَ الخَليلُ مُعانِقًا أَبَا عمرٍو بنَ العَلاءِ قائلاً لَهُ:

- لاَ زِلْتُ تِلميذَكَ يَا سَيِّدي، وصُنْعَ يَدَيْكَ، وقد واصلتُ تعلُّمي لنَحوِ العَرَبيّةِ وأنا في مُعسكَراتِ الجِهادِ، فمَعَنَا، في المُعسكَرَاتِ، كانَ شَبابٌ مِن عُلَماءِ النَّحوِ بالعِراقِ والشَّامِ.

لَكِنَّ ذَلِكَ المَوقفَ لَم يَمُرَّ بسَلامٍ. فَقَدْ رَاحَ طُلاَّبُ العلمِ، وأَساتِذَةُ العِلمِ، بمَسجِدِ البَصرةِ، يَتحدَّثُونَ، بَينَ النَّاسِ، أَنَّ البَصرةَ قَدْ أَنجَبَتْ عَالمًا نَابِغَةً بالنَّحوِ، تَجاوَزَ بعِلمِه قَدْرَ كُلِّ عُلَماءِ النَّحوِ بالبَصرَةِ، وَراحُوا يَتَوقَّعُونَ، ويُشيعُونَ، أَنَّ الخَليلَ سَيُناظِرُ أَبَا عَمرٍو بنُ العَلاءِ فِي النَّحوِ، ويَتَفَوَّقُ عَلَيهِ فِي الجَدَلِ والمُناقَشَةِ لِمسائِلِ النَّحوِ. بَلْ وَراحُوا يُحرِّضُونَ الخَليلَ عَلَى التَّقَدُّمِ لِهَذِهِ المُناظَرَةِ، فِي يَومٍ مَشهودٍ، حَتّى يَعرِفَ الكُلُّ فَضْلَهُ، ويَصيرَ مِن حَقِّهِ أَنْ يَعقِدَ لِنَفسِه بمَسجِدِ البَصرَةِ، حَلْقَةً خاصّةً، لِتَعليمِ النَّحوِ.

وَكانَ ذَلِكَ الصَّبيُّ الفارِسيُّ الذي عَلَّمَه الخَليلُ يَومًا نُطقَ حُروفِ العَرَبيّةِ، قَد كَبِرَ مِثلَهُ فِي العُمرِ، وتَكَنّى بكُنيَةِ أَبُو عَليّ. وراحَ أَبُو عَليّ يُحرِّضُه، ويُغريهِ بمُناظَرَةِ أَبي عَمرٍو، فَقالَ لَهُ الخَليلُ، مُشفِقًا عَلى نَفسِه، وعَلى أُستاذِه:

- يَا أَبَا عَليّ. إنَّني أَخْشَى أَنْ أَغلِبَ أُستاذي وشَيْخي في المُناظَرَةِ، وأَنْ يَتَمَلَّكَني الزَّهْوُ والخُيَلاءُ (الكِبْرياء)، فأَنْصَرِف عَن طَلَبِ المَزيدِ مِنَ العِلمِ.

فَقالَ لَهُ أَبُو عَليّ:

- يَا خَليلُ. لاَ تَخشَى شَيئًا مِنَ الغُرورِ. فَالتَّواضُعُ طَبيعةٌ (خُلُقٌ أَصيلٌ) فيكَ.

فَقالَ لَهُ الخَليلُ:

- لاَ. ذَلِكَ أَمرٌ لَنْ يَكونَ.

فَضَحِكَ أَبُو عَليّ، وقَالَ لَهُ:

- لاَ فِرارَ لَكَ الآنَ. فَقَدْ قَرَّرْنَا، نَحْنُ الطُّلاّبُ، أَنْ تُناظِرَ أَبَا العَلاءِ غَدًا. وَقَدْ عَرَفَ النَّاسُ الخَبَرَ. ولَسَوفَ يَملأُونَ مَسجِدَ البَصرَةِ، عَصْرَ غَدٍ. وإذَا لَمْ تَحضُرْ فَلَسَوفَ يَقولُ الكُلُّ عَنكَ: إنَّكَ جَبانٌ، وقَليلُ العِلمِ.

التِّلميذُ والأُستاذُ

فِي وَقتِ العَصرِ، وإثْرَ صَلاةِ العَصرِ، كانَ المَسجِدُ مُمتلِئًا بالنَّاسِ، كَمَا قَالَ أَبُو عَليّ، وكانُوا مُتَحلِّقينَ فِي دَوائِرَ حَوْلَ حَلْقَةِ

دَرسِ أَبِي عمرُو بنُ العَلاءِ، وقَد جَلَسَ أَبُو عمرُو غيرَ هيّابٍ فِي صدارةِ حلْقتِه، يَتحدَّثُ فِي النَّحوِ. وكَانَ الخَليلُ جالِسًا يَستَمِعُ إليهِ، لا يَسأَلُه، ولاَ يُعارضُه، إلى أَن قَرُبَ موعدُ صلاةِ المَغربِ، وعندئذٍ خَتَمَ أبو عمرُو درسَهُ، وقرَأَ الفاتحَةَ فِي الختَامِ، وعَيْنَاهُ تَنظُرانِ إلى الخَليلِ فِي امتِنانٍ (عرفان بالجَميل) والنَّاسُ يَنظُرونَ إلى الخَليلِ مُبتَسمينَ ومُشفِقينَ. وفِي وَجهِ صَديقه أَبِي عَليّ غَضَبٌ مكتومٌ، لأنَّ الخَليلَ ظَلَّ يَسمَعُ صامِتًا، لاَ يَسأَلُ، ولاَ يُعارِضُ، ولاَ يُناقِشُ أَو يُجادِلُ.

وحينَ انفَرَدَ المَجلِسُ بالصَّديقَيْنِ، وقَدْ خَلاَ المَسجِدُ مِنْ حولِهِمَا إِثْرَ صَلاةِ المَغرِبِ، قالَ أَبُو عَلِيّ للخَليلِ:

- يَا صاحِبِي. إنَّكَ إمّا أَنْ تَكونَ جَبانًا، وإمّا أَنْ تَكونَ مَعتوهًا (ناقِصَ العَقلِ). لِمَ لَمْ تَنْتَهِزِ الفُرصَةَ لِتَصيرَ رَئيسًا مِن رُؤَساءِ العَرَبِيّةِ، فِي البَصرَةِ، وغَيرِ البَصرَةِ؟

فَنَظَرَ إليهِ الخَليلُ فِي عِتابٍ، وقالَ لَهُ:

- يَا أَبَا عَلِيّ. لَستُ جَبانًا ولاَ نَاقِصَ العَقلِ، ولَكِنَّنِي رَأَيتُ أُستاذِي أَبَا عَمرُو، وَقَد كَبِرَ فِي السِّنِّ، وقَدَّرتُ لَهُ أَنّهُ عَلَّمَ النَّحوَ

لِلنَّاسِ خَمسينَ سَنَةً، ولَوْلاهُ لَمَا اهتَدَيْتُ بِعَقلِي إلى مَا اهتَدَيْتُ إليهِ، فَكَيْفَ أَسمَحُ لِنَفسِي أَنْ أُنكِرَ فَضلَهُ عَلَيَّ، وَهُوَ حَيّ، وأَفضَحَ حُدودَ علمِه فِي البَصرَةِ، وَأُضَيِّعَ حَقَّهُ عَلَينَا جَميعًا مِنَ الإكبارِ والإحترامِ. واللّهِ لَنْ أَفعَلَ ذَلِكَ أَبدًا بأَحدٍ مِنَ العُلَماءِ، أُستاذًا كانَ لِي أَو غَيرَ أُستاذٍ. ولْتَعلَمْ يَا أَبَا عَلِيّ أَنَّ التِّلميذَ يُساوِي أُستاذَهُ، زائِدًا الفَرقَ فِي الزَّمَنِ بَينَهُمَا.

وبَدَا عَلى وَجهِ أَبِي عَلِيّ التَّأَثُّرُ، بِمَا قَالَهُ الخَليلُ، لَكِنَّهُ قَالَ لَه بِقَلَقٍ:

- لَكِنْ، كَيفَ إذَنْ سَتُصبِحُ مُعلِّمًا، ولَكَ حَلْقَةُ دَرسٍ بالمَسجِدِ، وهِيَ مَركَزٌ مَرموقٌ لِكُلِّ طُلّابِ العلمِ؟ كَيفَ، وأَنتَ لاَ تُظهِرُ تَفَوُّقَكَ فِي العِلمِ عَلى أَحدٍ؟ هَلْ تَنتَظِرُ، ونَنْتَظِرُ مَعَكَ، إلى أَنْ يُوَدِّعَ كُلُّ عُلماءِ النَّحوِ الدُّنيَا؟

فَقالَ لَهُ الخَليلُ بِهُدوءٍ شَديدٍ:

- يَا أَبَا عَلِيّ. سَأَظَلُّ آتِي إلى المَسجِدِ دائِمًا، مُستَمِعًا ومُتَعَلِّمًا للعِلمِ، وطَالِبًا للمَزيدِ مِنَ العِلمِ فِي بَيتِي. ويَومًا مَا، سَأَجعَلُ مِن ساحَةِ بَيتِي حَلْقَةَ دَرسٍ. فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَأخُذَ عَنّي مَا أَعرِفُه مِن العِلمِ، فَليَأْتِ إليَّ، لأُعَلِّمَهُ مَا عِندِي، وأَتَعَلَّمَ مِنهُ مَا عِندَهُ.

عَلَّمَنِي هذا الصَّبِيّ

وكَانَ الخَليلُ قد وَرِثَ عَن أبيه الدّارَ التي يَعيشُ بِها . كَانَتْ دارًا واسِعَةً من الحَجَرِ الأبيَضِ، وكَانَتْ غُرَفُ الدَّارِ، في وَسَطِ سورٍ يُحيطُ بها، بينَ ساحَتَيْنِ لَهُما بابَان: بابٌ للنِّساء، وبابٌ للرِّجالِ. وفي السَّاحتَيْنِ كانَتْ أشجارٌ قليلةٌ وارِفَةُ الظِّلِّ، وورِثَ مَعَ الدّارِ نَخيلاً بَينَ نَخيلِ البَصرة، وبُستانًا بَينَ بَساتينِها يُروى بماءِ النَّهرِ العَذبِ، وتُزرَعُ بِهِ حُبوبٌ تُحصَدُ، وتُجنَى مِن أشجارِهِ ثِمارٌ فاكِهَةٌ.

وتَزوَّجَ الخَليلُ، من فَتاةٍ سَمراءَ جَميلةٍ، اسمُها زينبُ، وأنجبَ منها ابنًا أسمَياهُ: عَبدُ الرَّحمنِ. وكانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ العُمرِ ثَلاثينَ عامًا، حينَ وَدَّعَتْ أُمُّهُ الدُّنيا، لاَحِقَةً بِرحمَةِ اللَّه، وقَدْ اطمَأنَّتْ عَليه في رِعايَةِ زَوجَتِه زينب، أُمِّ عَبدِ الرَّحمنِ.

وكانَ الخَليلُ يَجلِسُ كُلَّ صَباحٍ، في ساحَةِ الرِّجالِ بِبَيتِه، وكانَ بابُه مَفتوحًا لأيِّ وافِدٍ. وعَصرَ يَومٍ، وهُوَ جالِسٌ مَعَ صَديقِه أبي عَلِيّ، دَخَلَ عَليه رَجُلٌ مِن أهلِ البَصرَةِ، ومَعَهُ ابنٌ لَه، لاَ يُجاوِزُ سِنَّ العَاشِرَةِ إلاّ بعامٍ أو عامَينِ. وحينَ استَقَرَّ به المَجلِسُ، قَالَ لِلخليل:

- يا خَليلَ. أعلَمُ أنّكَ أعلَمُ أهلِ البَصرَةِ. وَهذا ابني العَزيز، جِئتُ بِه إليكَ لِتُكمِلَ تَعليمَهُ على يَدَيْكَ، وتُحسِنَ إرشادَهُ، ولَكَ مِنّي ما تَشاءُ مِنَ المالِ. ونَظَرَ الخَليلُ إلى الصَّبِيِّ. وقالَ لَهُ:

- ما اسمُكَ يا بُنَيَّ؟

فَقالَ لَهُ الصَّبِيُّ بِثِقَةٍ، وَهُدوءٍ:

- إبراهيمُ النظَّام.

فَقالَ لَهُ الخَليلُ:

– اقترِبْ منّي يا بُنَيَّ، فَلَسوفَ أسألُك لأعرِفَ درجةَ ذكائِكَ، وقُدرتِكَ على المَعرِفَةِ.

فقالَ لَهُ الغُلامُ، بثِقةٍ وهُدوءٍ، في نَبرَةٍ مُعتزَّةٍ بالنَّفسِ:

– سَلْ ما تَشاء.

فقالَ لهُ الخليلُ:

– يا بُنَيَّ. أترَى هذهِ النَّخلةَ، في ساحَتِنا هذهِ؟ صِفْها لِي.

فقالَ لهُ الغُلامُ على الفورِ:

– إنَّ لِوَصفِها، كما أراها الآنَ، في وَقتِ العَصرِ، وَجهانِ. فإنْ وَصَفْتُ ما يَحسُنُ منها في عَيْني بَدَتْ صالحةً، وإنْ وَصَفْتُ مَساوِئَها بَدَتْ سيِّئَةً. أتُريدُ أنْ أصِفَها بِمَدحٍ أم بِذَمٍّ؟

ونَظَرَ الخليلُ إلى الغُلامِ باهتمامٍ، وقالَ لَهُ مُبتَسِمًا وراضِيًا:

– أحسنْتَ التَّفصيلَ يا بُنَيَّ. إنَّ لَكَ عقلَ مُتَفلسِفٍ. وإنّي أُفضِّلُ أنْ تَمدَحَ نَخلَتي، فتُحَبِّبَها إليَّ.

فنَظَرَ إبراهيمُ الصَّبِيُّ إلى النَّخلَةِ، وكانَتْ مُحمَّلَةً بالبَلَحِ، وسامِقَةً (مُرتفِعَةً)، وقال:

– إنَّها حُلْوٌ مُجتَناها (ثَمرُها)، باسِقٌ مُنْتَهاها (عاليةٌ جِدًّا)، ناضِرٌ أعلاها (سَعَفُها).

فقالَ لَهُ الخليلُ باسِمًا وراضِيًا:

– فذُمَّها لي يا إبراهيمُ.

فنَظَرَ إبراهيمُ ثانيةً إلى النَّخلةِ، وقالَ:

– إنَّها صَعْبَةُ المُرْتَقَى (عَسيرةُ الصُّعودِ)، بَعيدةُ المُجْتَنَى (الثَّمر)، مَحفوفةٌ بالأذى (مُحاطَةٌ بالأشواكِ).

فنَظَرَ الخليلُ إلى الغُلامِ في دَهشَةٍ، وفكَّرَ أنَّهُ يُحسِنُ مِنَ الكَلامِ والأدَبِ، ما يَعجزُ عَنْهُ العُلَماءُ، وما يَقصُرُ دُونَه الغُلمانُ في مِثلِ سِنِّه. وأدرَكَ الخليلُ أنَّ هذا الغُلامَ سَيُصبِحُ وَحدَهُ بَحرًا مِنَ العِلمِ يَنهلُ مِنهُ العُلماءُ. وعِندئذٍ قالَ الخليلُ لِلغُلامِ:

– يا إبراهيم. إنْ أبقاكَ اللَّهُ على طَريقِ العِلمِ، ستُصبِحُ أوَّلَ مُتَفلسِفٍ بينَ المُسلمينَ، مِن أئمَّةِ البَيانِ (البَلاغَةِ والأدَبِ) وأسيادِ القَولِ (الكَلامِ).

والتَفتَ الخليلُ إلى والِدِ إبراهيمَ، وقالَ لَهُ:

– يَا أَخِي. خُذْ وَلدَكَ مَعَكَ، وَدَعْهُ فِي بَحرِ الدُّنْيَا. فَنَحْنُ أَحوجُ إلى العلمِ منهُ.

وانْصَرَفَ الرَّجُلُ، مُغادرًا لبيتِ الخليلِ، سَعيدًا بوَلَدِه. وقالَ الخليلُ لِصَديقِه أَبي عَلِيّ:

– لَقَدْ تَعَلَّمتُ يَا أَبَا عَلِيّ مِن هَذَا الغُلامِ. تَعلَّمتُ أَنَّ لِكُلِّ شَيءٍ، ولِكُلِّ مَسألَةٍ، أَكْثَرُ مِن وَجهٍ وَاحِدٍ، وَلَنْ نَصلَ إلى الحَقيقَةِ إلاَّ بدراسَةِ الشَّيءِ أو المَسأَلَةِ، مِن كَافّةِ الوُجوهِ والنَّواحي. فَتَذَكَّرْ ذَلكَ يَا صَديقِي، وذَكِّرْنِي بِهِ كُلَّمَا نَسيتُه، حَتّى لاَ نَضلَّ طَريقَنَا فِي بَحرِ العِلمَ الوَاسِعِ.

علاماتُ التَّشكيلِ الجديدةِ

وعَصرَ كُلِّ يَومٍ، كَانَ طُلاّبُ العلمِ الكِبارِ، يَأتونَ إلى الخَليلِ، فَيعقدَ لَهُم حلقةَ دَرسِه، فِي سَاحَةِ بَيتِه، وكَانَ بَينَهُم مَن صَارُوا عُلماءَ عِظامًا فِي لُغَةِ العَرَبِ وَأدَبِ العَرَبِ، مِن أَمثالِ: الأَصمَعِي، وسِيبَوَيْه، والنَضرُ بنُ شُمَيْل، وأَبُو فَيْد السّدوسي، وعَلِي بنُ نصر، وغَيرُهم كَثيرونَ، ومَعَهُم كانَ صَديقُه الفارسِيُّ أبُو عَلِيّ، لاَ يَفتحُ اللّه لَهُ بِعلمٍ، ولَكنَّه يَفهَمُ العِلمَ، ويُحِبُّ مَجلِسَ الخَليلِ العِلمِيّ.

وصَباحَ يَومٍ، جَاءَ أَبُو عَلِيّ إلى صَديقِه الخَليلِ، لِيَتحَدَّثَ مَعَهُ، فَلَمْ يَجِدْهُ فِي البَيتِ، وقَالَتْ لَهُ أُمُّ عَبدُ الرَّحمنِ:

– لاَ أَدرِي مَاذَا أَصابَ أَبَا عَبدِ الرَّحمنِ. فِي كُلِّ صَبَاحٍ يَأْخُذُ أَوراقَه، ومِحْبَرَتَه السَّوداءَ، ورِيشَتَهُ، ويُغادِرُنَا، فَلاَ يَعودُ إِلَيْنَا إلاَّ مَعَ اللَّيلِ، والأَيّامُ أَيّامُ صَيفٍ، والجَوُّ شَديدُ الحَرارَةِ والرُّطوبَةِ.

وقَلِقَ أَبُو عَلِيّ، وراحَ يَبحَثُ عَنِ الخَليلِ خَارِجَ البَصرَةِ، حَتّى رَآهُ جَالِسًا فِي بَساتينَ «الخَصيب»، فَوْقَ حَجَرٍ، تَحتَ شَجرَةٍ ظَليلَةٍ. واقتَرَبَ أَبُو عَلِيّ مِنَ الخَليلِ فَلَمْ يَنْتَبِهْ إليه. كانَ مُستَغرِقًا فيمَا يَكتُبُه، ورَآهُ يَكتُبُ تَشكيلاً للحُروفِ العَرَبِيّةِ بِطَريقَةٍ جَديدَةٍ، وبِحِبْرٍ أَسودَ لاَ أَحمَرَ. كانَ يُشَكِّلُ الحُروفَ بِأَلفاتٍ (شُرَط) أُفُقيّةٍ قَصيرةٍ فَوقَ الأَحرُفِ وتَحتَها، وبِواوَاتٍ صَغيرةٍ، ودَوائِرَ مُفرغَةٍ صَغيرةٍ، وسينَاتٍ صَغيرةٍ فَوقَهَا أَلفٌ أُفُقِيّةٌ قَصيرةٌ، أَو وَاوٌ أُفُقيّةٌ قَصيرةٌ، أَو تَحتَهَا أَلفٌ أُفُقِيّةٌ قَصيرةٌ. وصَاحَ أَبُو عَلِيّ بِالخَليلِ قَائِلاً:

– عَجَبًا يَا صَاحِبِيّ، مَا هَذِهِ الكِتابَةُ العَجيبةُ؟

فَقالَ لَهُ الخَليلُ:

– لَقَدْ وَجدتُهَا يَا أَبَا عَلِيّ. فَمَا تَراهُ مِن أَلِفاتٍ أَو وَاواتٍ أَو دَوائِرَ أَو سِيناتٍ، هِيَ عَلاماتُ تَشكيلٍ جَديدةٍ، ابتَكَرْتُهَا لِتُكتَبَ

بالحِبْرِ الأَسْوَدِ نَفسهُ، وحَتّى لاَ تَختَلطَ النّقاطُ السّوداءُ للحُروفِ بالنّقاطِ الحَمراءِ للتّشكيلِ، وحتّى لاَ أُضيّعَ وَقتَ الكَاتبِ فِي الكِتابَةِ بِحبْرَيْنِ، وَريشَتَيْنِ.

وَجلَسَ أَبُو عَلِيّ، وَراحَ يَقرأُ مَا كَتبَهُ الخَليلُ، وَكانَ مَا يَقرَؤُهُ آيَةً مِنَ القُرآنِ الكَريمِ، والخَليلُ يُساعدُهُ فِي القِراءَةِ، ومَعرفَةِ عَلامَاتِ التَّشكيلِ الجَديدةِ. وأُعجِبَ أَبُو عَلِيّ بِمَا صَنَعَهُ الخَليلُ لِلكتابَةِ، فَصاحَ قَائِلاً:

- مَا أَحسَنَ مَا صَنَعتَ لِلعَرَبِيّةِ.

وسَكَتَ أَبُو عَلِيّ لَحظَةً، ثُمَّ قالَ بِقَلَقٍ:

- لَكنَّ النّاسَ يَا أَبَا عَبدِ الرَّحمنِ، سَوْفَ يَثورُونَ عَلَيْكَ، لأَنَّكَ تُقدِّمُ لَهُمْ غيرَ مَا أَلِفوهُ. ولَسَوفَ يَقولُ هَؤُلاءِ العُلماءُ المَسجِديُّونَ: إنَّ الخَليلَ يُغَيِّرُ كِتابَةَ العَرَبيّةِ، ويُغَيِّرُ كِتابَةَ القُرآنِ.

فَقالَ لَهُ الخَليلُ:

- أُدرِكُ ذَلكَ يَا أَبَا عَلِيّ، لَكِنَّني سَأقولُ لَهُمْ: إنَّ أَبَا الأَسوَدِ الدُّؤَلي قَدْ فَعَلَهَا قَبْلي لِتَيْسيرِ العَرَبِيّةِ حينَ نَقَطَ حُروفًا عَربيّةً لَم

تَكُنْ لَهَا أيَّ نُقَطٍ، وحِينَ ابْتَكَرَ عَلامات لِلتَّشكيلِ بِنُقَطٍ حَمراءَ. وأَنَا لَمْ أَفعَلْ سِوَى أَنْ حَوَّلْتُ هَذهِ النُّقَطَ الحَمراءَ، إلى عَلاماتِ تَشكيلٍ سَوداءَ جَديدةٍ. ولَسَوْفَ يَتَّبِعُ النّاسُ طَريقَتي، ولَوْ بَعدَ خَمسينَ عَامًا.

وَسَكَتَ الخَليلُ لَحظةً، ثُمَّ قَالَ ضَاحِكًا:

- أَتَعْرِفُ لِمَ ابتكرتُ هَذهِ الطَّريقَةَ؟ لَقَدْ ابتَكَرتُهَا لأَنَّ زَوجَتِي أُمُّ عَبدِ الرَّحمَنِ طَلَبَتْ مِنّي أَنْ أُعَلّمَهَا القِراءَةَ والكِتابَةَ، لَكِنَّني اكتَشَفْتُ أَنّهَا لاَ تَرى اللّونَ الأَحْمَرَ، وتَرى النّقاطَ الحَمراءَ نِقاطًا سَوداءَ، وتَختَلِطُ عَلَيْهَا نِقاطُ الحُروفِ بِنِقاطِ التَّشكيلِ.

وارتَجَّتِ البَصرَةُ لِمَا صَنَعَهُ الخَليلُ بِتَشكيلِ الكَلماتِ العَرَبيّةِ، وانقَسَموا بَينَ مُتَحمّسٍ لَهَا ومُعارِضٍ وانحازَ الشّبابُ إلى طَريقةِ الخَليلِ، وهاجَمَ الكُهولُ والشُّيوخُ طَريقةَ الخَليلِ. ومِن أَجلِ هَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ، كَتَبَ الخَليلُ رِسالَتَيْنِ ليعلمَ النّاسُ كَيفَ يَكتُبونَ العَرَبيّةَ كِتابَةً حَسنَةً، وبِطَريقَةٍ مُيسَّرةٍ، وَبِحبْرٍ وَاحدٍ، هُمَا: رِسالَةُ النُّقَطِ، ورِسالَةُ الشَّكْلِ.

الحمارُ ينْتَظِرْ

تحتَ شَفَقٍ أحمرَ، لِشَمسٍ غَارِبَة، كَانَ الخَليلُ جَالسًا مَعَ أَصحَابِهِ وتَلاميذِه، فِي سَاحَةِ بَيْتِه. ودَخَلَ عَلَيْهِم فَجأةً، فَلاّحٌ مُتَعَجِّلٌ، ومَعَهُ ابنُه، وقَالَ لِلخَليل:

– سَمِعْتُ بِنُبوغِكَ فِي العِلمِ، فَجِئْتُ بِابْنِي إِلَيْكَ، لِيَتَعَلَّمَ مِنْكَ. وَلَقَدْ جِئْتُ مِن سَفَرٍ بَعِيدٍ، والحِمارُ مَربُوطٌ بِحَلْقَةِ الجِدارِ، خَارِجَ بَيْتِكَ، يَنْتَظِرُ عَوْدَتَهُ بِنَا إِلى قَرْيَتِنَا.

وابْتَسَمَ الخَليلُ وأَصحَابُه مِن كَلامِ الفَلاّحِ، وقَالَ الخَليلُ لِلرَّجُلِ المُتَعَجِّلِ:

– ومَاذَا تُريدُ؟

فَقالَ لَهُ الفَلاّحُ:

– أَمامَكَ سَاعَةٌ. سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ، لِتُؤَدِّبَ ابْنِي فِيهَا، بِشَيءٍ مِنْ عِلمِ النُّجومِ، وتُعَلِّمَهُ مَا يَكفِي مِنَ النَّحْوِ، وتُلَقِّنَه مَا يَحتاجُ إليه مِنَ الطِّبِّ، وتُفَهِّمَهُ فَرائِضَ الفِقهِ. وتَذَكَّرْ أَنَّ الحِمارَ عَلَى البَابِ، يَنتَظِرُ بِفَارِغِ الصَّبْرِ، تَعليمَ صَغيري هَذَا.

وكَتَمَ الخَليلُ وأَصحَابُه رَغبَتَهُمْ فِي الضَّحِك. ونَظَرَ الخَليلُ إلى ابْنِ الرَّجُلِ، فَرآهُ، فيمَا قدَّرَ، مَعتوهًا (نَاقِصَ العَقلِ)، فَقالَ لَهُ الخَليلُ:

– اعلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ نَجمَ «الثُّرَيّا» فِي وَسَطِ السَّماءِ، ويَكْفيكَ ذَلكَ مِن مَعرِفَةِ علمِ النُّجومِ. واعلَمْ أَنَّ الفَاعِلَ مَرفُوعٌ، وبِهَذه المَعرِفَةِ بُدِيءَ النَّحْوُ، ولَعَلَّهُ بِهَا يُختَمُ. واعلَمْ أَنَّ الإسهَالَ، مِثْلَ الإمساك، خَطَرٌ عَلى الجِسْمِ. وهَذَا هُوَ جَوهَرُ علمِ الطِّبِّ. واعرف أَنَّهُ إِنْ مَاتَ رَجُلٌ، وتَرَكَ ابنَيْنِ، فَمَالُه وثَروَتُه تُقَسَّمُ بَيْنَهُمَا بِالتَّساوِي.

وعِندَئذٍ نَهَضَ الرَّجُلُ القَروِيُّ وَاقِفًا، قَائلاً لِلخَليلِ:

– شُكرًا لَكَ يَا شَيخَ البَصرَةِ. وجَزاؤُكَ عِندي أَنّني سَأُحَدِّثُ النّاسَ أَنَّكَ أَعْلَمُ أَهلِ زَمانِك، فَقَدْ عَلَّمتَ وَلَدِي فِي دَقائِقَ، مَا يَعجِزُ سِواكَ عَن تَعليمِهِ فِي سَنَواتٍ.

ثُمَّ قَالَ القَرَوِيُّ لابنِه:

– قُمْ يَا بُنَيَّ فالحمارُ يَنْتَظِر. ولاَ تَنسَ مَا قَالَهُ لَكَ شَيخُ البَصرَةِ. ولَقَدْ صِرنَا أَنَا وَأَنْتَ أَعلَمَ الفَلاّحينَ فِي زَمانِنَا.

وغَادَرَ القَرَوِيُّ وابنُهُ سَاحَةَ البَيت، ورَكِبَا حِمارَهُما، ومَضَيَا بِه مُسْرِعِينَ، ورَاحَ الخَليلُ وأَصحابُهُ يَنظُرونَ إِلى بَعضِهِمِ البَعضِ فِي صَمتٍ، ثُمَّ انفَجَرُوا ضَاحِكِين.

أَصواتُ الأَسواقِ

فِي البَصرَةِ، كانَ الأعاجِمُ (الفرسُ) يَسخَرُونَ مِنَ العَربِ، ويَزعُمُونَ أَنَّ شِعرَ العَرَبِ لاَ ضَوابطَ لَهُ ولاَ قَواعِدَ، مثلَ شعرِ الفُرسِ. وكانَ المُوسيقيّونَ مِنَ المُلَحّنينَ والعَازِفينَ، يَصنَعُونَ الألحَانَ، أَو يَعزِفُونَ، بِلاَ أُصولٍ ولاَ قَواعِدَ. فَقَدْ كَانُوا يَعزِفُونَ بِالسَّماعِ والتَّعَوُّدِ والتَّلقينِ، والتَّدَرُّبِ على أَيدي شُيوخِ العَازِفينَ والمُغَنّينَ. وعيَّرَ الكاتبُ «ابنُ المُقفَّع» الخَليلَ بهذَيْنِ الأمرَيْنِ، فَلَيسَ هُناكَ علمٌ لأُصولِ وقَواعِدِ الشّعرِ العَرَبِيِّ، مثلَ شعرِ الفُرسِ، ولاَ علمٌ لأُصولِ وقَواعدِ لعزفِ العَرَبِ وألحانِهِمْ وغنائِهِمْ، مثلُ عَزفِ اليُونَانيّينَ وغنائِهِمْ وألحانِهِمْ.

وشَغَلَ هَذانِ الأمْرانِ فكرَ الخَليلِ، إلى أَنْ جلَسَ مَعَ صَاحِبِهِ أَبي عَلِيّ، فِي بَساتِينِ الخَصيبِ. وفَجأَةً، صَاحَ الخَليلُ قَائلاً:

– وَجَدْتُهَا. وَجَدْتُ البِدَايَةَ. السُّكونُ فِي الشّعرِ هُوَ السُّكونُ فِي المُوسيقَى. والسُّكونُ فِي المُوسيقَى هُوَ السُّكونُ فِي الشّعرِ.

فَقالَ أَبُو عَلِيّ:

– لاَ أَفهَمُ. مَاذَا تَقصِدُ؟

فَقَالَ لَهُ الخَليلُ:

– إنَّهَا فِكرَةٌ، وعلَيَّ أَنْ أَتَأَكَّدَ منهَا، من خلالِ أَمْرَيْنِ: مَقَاطِعِ المُوسيقَى، ومَقَاطِعِ الشّعرِ. وعِندَئِذٍ سَوفَ أَعرِفُ مَقاييسَ الشّعرِ والموسيقَى، وأَضعُ لَهُمَا الضَّوابِطَ والأُصُولَ والقَواعِدَ.

وافْتَرَقَ الصَّديقانِ، حينَ عادَا إلى البَصرَةِ، علَى مَوعِدٍ بَينَهُمَا فِي الصَّباحِ.

فِي الصَّباحِ، جاءَ أَبو عَلِيّ إلى الخَليلِ، فَذَهَبَ به الخَليلُ إلى سُوقِ الصفَّارين (النّحّاسين) وكانَ الطَارِقُونَ لِلنُّحاسِ، يُحدِثُونَ بِمَطارِقِهِم أَصواتًا مُدَوِيَّةً، مُزعِجَةً ورَتِيبَةً، مُنفَرِدَةً، وثُنائيةً، وثُلاثيةً، لَكنَّهَا كَانَتْ تُشبِهُ فِي أُذُنَيِ الخَليلِ أَنغامَ المُوسيقَى العَاليةِ، بقدْرِ مَا تُفزِعُ سَمعَ أَبي عَلِيّ.

وقادَ الخَليلُ صاحِبَهُ أَبَا عَلِيّ إلى سُوقِ القَصّارين (غاسِلِي الثّيابِ)، وهُم يَضرِبونَ الثّيابَ، وهِيَ فِي المَاءِ فَوقَ الأَحجارِ، بِمَضارِبَ مِنَ الجلدِ، ذَاتِ قطعةٍ واحدةٍ مِنَ الجلدِ، أَو قِطعَتَيْنِ، أَو ثَلاث، حَتّى يَزولَ عَنْهُ مَا بِهَا مِن وَسَخٍ وقذَرٍ. وكانَ القَصّارُونَ يَتَنَاوَبُونَ الضَّربَ بِمَضارِبِهِمْ تِباعًا، فَتُحدِثُ فِي وَقعِهَا أَصواتًا كَأَنَّهَا رَنينٌ مكتومٌ، لأَوتارِ عُودٍ.

ودُهِشَ أبُو علِيّ حِينَ رَأى الخَليلَ يُسنِدُ ظَهرَهُ إلى جِدارٍ، ويُخرِجُ لَوحًا يكتُبُ عليه، وَهُوَ يُحَرّكُ لِسانَهُ وفَمَهُ في صَمتٍ. وخَشِيَ أبُو علِيّ أنْ يَرى الصِّبيَةُ الخَليلَ وَهُوَ في هَذه الحالِ، فَيَسخرُوا منهُ، أو يقذفُوهُ بالأحْجارِ، فانْدَفَعَ نَحوَهُ يَجُرُّهُ جرًّا، ويخرُجُ بِه مِن سُوقِ القَصّارين، قائلاً لَهُ:

- أجُنِنْتَ؟ ماذا تَصنَعُ؟ الصِّبيَةُ يَنظُرونَ إليكَ.

وحِينَ انفرَدا خارِجَ السُّوقِ، قالَ لَهُ الخَليلُ بهُدوءٍ:

- كُنتُ أُوازِنُ بَيْنَ أصواتِ مَطارِقِ الصفّارينَ، وأصواتِ مَضارِبِ القَصّارينَ. فَوَجَدْتُ الأصواتَ والإيقاعاتِ وَاحِدَةً لِلمَطارِقِ والمَضارِبِ، غَيرَ أنَّ صَوتَ المَطارِقِ مَمْدُودٌ بِسَبَبِ رَنينِ النُّحاسِ، وصَوتُ المَضارِبِ مَكتُومٌ بِسَبَبِ الثّيابِ والأحجارِ.

فَضَحِكَ أبُو علِيّ وقَالَ لِلخَليلِ:

- انتَقَلْنا مِن أصواتِ الإنسانِ ولُغَتِه، إلى أصواتِ النُّحاسِ والثّيابِ، والمَطارِقِ والمَضارِبِ.

وحَدَّقَ أبُو علِيّ، في اللَّوحِ الذي خطَّ فيهِ الخَليلُ أصواتَ ما سَمِعَهُ، فقرأَ: تَنْ فَتخَيَّلَ طَرقَةً وَحيدَةً على النُّحاسِ، أو ضَربَةً

وَحيدةً على الثَّوب، وَقَرأَ: تَنْ تَنْ. فتَخَيَّلَ ضَرْبَتَيْنِ مُتَتابِعَتَيْنِ، لِمطرَقَةٍ واحِدَة، أو لِمَضربيْنِ مُنفرِدَيْنِ. وَقرأَ: تَنْ تَنْ تَنْ، فتَخيَّلَ ثَلاثَ ضَرباتٍ مُتَلاحِقَة، لِمطرَقَةٍ واحِدَة، أو لِثَلاثِ مَضارِبَ مُنفَرِداتٍ. وَقالَ أَبو علِيٍّ لِلخَليلِ:

- أحسَبُنِي فهِمتُ ما قَصَدْتَه بِـ: تَنْ، لكِنَّني لَمْ أفهَمْ ما قَصدتَهُ حينَ كَتَبْتَ: تَتَنْ، وَ: تَتَتَنْ.

فَقالَ الخَليلُ لأبِي علِيّ:

- يَا صاحِبِيّ: تَتَنْ، صَوتٌ لِمضربٍ واحدٍ ذِي جِلدَتَيْنِ، وَ: تَتَتَنْ، صَوتٌ لِمضربٍ ذِي ثَلاثِ جَلداتٍ.

وابتَعَدَ الصّاحِبانِ عَن سُوقِ القَصَّارينَ، وهُمَا يَسمَعانِ أَصواتَ مَضارِبِ القَصَّارينَ تَتَراجَعُ فِي البَعيدِ: تَنْ، تَنْ، تَتَنْ، تَتَتَنْ. تَنْ. تَتَتَنْ، تَنْ، تَتَنْ، تَتَتَنْ.

لاَ تُضحِكِ النَّاسَ عَليكَ

فِي اليَومِ التّالِي، وإِثْرَ صَلاةِ العِشاءِ، صَحِبَ الخَليلُ صَديقَهُ أَبا عَلِيّ، وَذَهَبا مَعًا إلى أَبِي رَافِعٍ، شَيخِ المُغنينَ والعَازِفينَ في البَصرَةِ. وقالَ الخَليلُ لأَبِي عَلِيّ:

- لَعلّنِي أَعرِفُ مَا يَعرِفُه أَبِي رافِعٍ عَنِ الأنغامِ والإيقاعِ، أَكثَرَ ممّا عَرَفتُهُ مِن سُوقِ النّحّاسينَ وسُوقِ القصّارِينَ، حتّى لاَ أُضيعَ وَقتِي فِيمَا عَرَفَهُ غَيرِي، مِن قَبلِي.

وأُدخِلَ الصَّديقَانِ إلى أَبِي رَافِعٍ، فَوَجَدَا حَولَه جَماعةً مِن أَهلِ العَزفِ والغِناءِ، والكُلُّ بَينَ عازِفٍ ومُغَنٍّ. وحِينَ انتَهَوْا مِنَ العَزْفِ والغِناءِ، قَالَ أَبُو رَافِعٍ ضَاحِكًا لِلخَليلِ:

- خَيرًا. أَتُريدُ أَنْ تَتَعَلَّمَ الغِناءَ، أَمْ التَّوقيعَ عَلى العُودِ؟ أَمْ النَّقْرَ عَلى الدُّفِّ؟ أَمِ الضَّرْبَ عَلى الطَّبْلَةِ؟

فَقالَ لَهُ الخَليلُ:

- إنَّمَا أُريدُ أَن أَعلَمَ مِنكَ عِلمَ المُوسيقَى، وقَواعِدَ هَذَا العِلمِ.

وفُوجِئَ الخَليلُ بِضحِكِ أَبِي رَافِعٍ وَمَنْ مَعَهُ. وقَالَ لَهُ أَبُو رَافِعٍ باستِنكارٍ ودَهشَةٍ:

- مَا عَهِدْنَا لِلمُوسيقَى عِلمًا، ولاَ قَواعِدَ. عُدْ يَا خَليلُ إلى نَحوِكَ ولُغَتِكَ، وَلاَ تُضحِكِ النَّاسَ عَليكَ.

وأَلحَّ عَليهِ الخَليلُ، وراحَ يَشرَحُ لَه مَا سَمِعَهُ فِي سُوقِ القَصّارينَ، وسُوقِ الصَفّارِينَ، ثُمَّ قَالَ لأَبِي رَافِعٍ:

– وَلَقَدْ سَمِعتُ هُنَا، الآنَ، ما سَمِعْتُه دائمًا فِي السُّوقَيْنِ. هُناكَ دائِمًا ثَلاثُ نَقَراتٍ مُختلفات: النَّقرةُ الأُولى دَقّةٌ وسُكونٌ. والنَّقرةُ الثَّانيَةُ دقّتانِ وسُكونٌ، والنَّقرَةُ الثّالِثَة ثَلاثُ دقّاتٍ وسُكونٌ. وهذهِ النَّقراتُ إذَا تَتَابعَتْ، وتَداخَلَتْ، كَوَّنَتِ المُوسيقَى، واختِلافُ تَتَابُعِهَا وتَداخُلِها هُو الذِي يُوَلِّدُ الأنغامَ والألحَانَ.

وَرجَا الخَليلُ، كَطالبِ علمٍ، أَبَا رَافعٍ، أَنْ يَدعَهُ فَقَطْ يحضُرُ مَجلسَهُ كُلَّ لَيلَةٍ، لَعَلَّهُ يَضَعُ مِمّا يَسمَعُه قَواعدَ لِلمُوسيقَى، فَيَجعَلَ منهَا عِلمًا يَسْهُلُ تَدريسُه، والتَّدريبُ عَلَيه، وأذِنَ لَهُ أَبُو رَافعٍ، وَهُوَ فِي عَجبٍ مِن أمرِ هَذَا اللُّغَوِيِّ النَّحوِيِّ.

وتَوَالَتِ اللَّيالِي عَبرَ الأيّامِ والأَسابيعِ والشُّهورِ، والخَليلُ يَذهَبُ إلى مَجلسِ أَبي رَافعٍ، فِي كُلِّ لَيلَةٍ، يَكتُبُ وَيُدوِّنُ مَا يَسمَعُه، ويُشارِكُ أَحيانًا فِي الغناءِ والإنشادِ، إلى أَنْ جَاءَ يَومٌ اعتكَفَ فيهِ الخَليلُ فِي بَيتِهِ نَحوًا مِن شَهرَيْنِ، ولَمْ يَخرُجْ لِلنَّاسِ، إلاّ وَقَدْ وَضَعَ أَوَّلَ كِتابَيْنِ عَرَبيَّيْنِ فِي عِلمِ المُوسيقَى، وقَواعِدِهَا، وأُصولِها، هُمَا: كِتابُ النَّغَمِ، وكِتابُ الإيقاعِ.

أَبِي جُنَّ

فِي دَارِ الخَليلِ، وفِي السَّاحَةِ الخَلفيّةِ الخَاصّةِ بِالنّساءِ، كانَ الخَليلُ يَتَسَلَّلُ خلسَةً مِن أهلِ بَيْتِه إلى هَذه السّاحَةِ، بَعدَ أَنْ يُرسِلَ زَوجَتَه لِتَزورَ أُمَّهَا مَعَ ابنِهِمَا عَبدِ الرَّحمَنِ. وينزِلُ بِسُلَّمٍ قَصيرٍ إلى جَوفِ البِئْرِ الجَافِّ، دُونَ أَنْ يَعلَمَ بِمَا يَفعَلُه أَحَدٌ، أَو يَراهُ أَحَدٌ، ويَأخُذُ فِي التَّفكيرِ والكِتابَةِ، وأَحيانًا يُحدِّثُ نَفسَهُ بِصوتٍ مُرتَفعٍ مَسموعٍ. وحَدثَ أَنْ عَادَ ابنُه عَبدُ الرَّحمنِ، عَلى غَيرِ انتظارٍ إلى ساحَةِ النّساءِ، وسَمِعَ أَصواتًا لَهَا صَدًى ورَنينٌ، تَصدُرُ مِن قَلبِ البِئْرِ، واتَّجهَ عَبدُ الرَّحمنِ خَائفًا نَحوَ البِئرِ، وَهُوَ يَسمَعُ:

كُرَةٌ ضُرِبَتْ بِصوالِجَةٍ
فتلقَّفَهَا رجلٌ رجلُ

وأَطَلَّ عَبدُ الرَّحمنِ فَرأى أَباهُ الرَّزينَ الوَقورَ، يُردِّدُ مُتَغَنّيًا، فِي جَوفِ البِئرِ، وَهُوَ يَهتَزُّ مُتَرَنِّحًا مَعَ الإيقاعِ:

كُرَةٌ ضُرِبَتْ   بِصَوَا لِجَةٍ
فَتَلَقْ قفها   رَجَلٌ رجلُ
فَعِلُنْ فَعِلُنْ   فَعِلُنْ فَعِلُنْ
فَعِلُنْ فَعِلُنْ   فَعِلُنْ فَعِلُنْ

وشَهَقَ عَبدُ الرَّحمنِ، ورَكَضَ مُسرِعًا إلى خارجِ الدَّارِ، يَصرخُ ويَصيحُ، وهُوَ يَبْكي بُكاءً شَديدًا:

- جُنَّ أَبي. جُنَّ أَبي. جُنَّ أَبي.

وأَسرَعَ النّاسُ وَراءَ عَبدِ الرَّحمنِ، ودَخَلُوا دارَ الخَليلِ، فَوَجَدُوهُ جالسًا فِي قاعِ البِئرِ، يَهتَزُّ ويَترَنَّمُ (يَتَغَنّى)، غافِلاً عنهُم، وعَن ضَجَّتِهِم، وقَالَ أَحَدُ النّاسِ:

- وأَسَفًا عَلى الخَليلِ. يَبدُو أَنَّ كَثْرَةَ الذَّكاءِ تُؤَدّي بِصاحِبِها إلى الجُنونِ.

وصَاحَ آخَرُ بالخَليلِ:

- يَا أَبَا عَبدِ الرَّحمنِ. اصحَ إلى نَفسِكَ، وتَذَكَّرْ رَبَّكَ.

ونَظَرَ إليهِمُ الخَليلُ مُتعجِّبًا، وفَهِمَ مَا حَدَثَ، وارتَقى (صعد) دَرَجاتِ السُّلَّمِ، خارِجًا مِنَ البِئرِ، وقالَ لِلنّاسِ:

- لاَ تَخافُوا عَلَيَّ شَرًّا، فإنّي أَصنَعُ عِلمًا لِلشّعرِ العَرَبيِّ. سَأُسَمّيه: عِلمُ العَروضِ، لِنَعرِفَ مَوازينَ لِشِعرِنَا العَرَبيِّ، كَمَا يَعرِفُ الفُرسُ مَوازينَ لِلشّعرِ الفارِسيِّ.

وعِندَئِذ هَدَأَ النّاسُ، وانصَرَفُوا مِن دارِ الخَليلِ، وهُم بَينَ مُصَدِّقٍ ومُكَذِّبٍ، فَلَمْ يَرَوا مِن قَبلُ عالِمًا، بِه هَذا القَدرُ مِنَ الجُنونِ.

وَجهٌ مِن ذَهَب

وانقضَى عامانِ على الخَليلِ، وهُوَ مُنشَغِلٌ بِتقطيعِ نَماذجَ مِن الشّعرِ العَرَبِيِّ، فِي مَقاطِعَ مِن حَركاتٍ وسَكناتٍ، يَجمَعُها فِي وَحَداتٍ مِن المَوازينِ والمَقاييسِ، ويُسمّيه: بُحورُ الشّعرِ العَرَبِيِّ، ويَضُمُّ هَذَا كُلَّهُ، فِي خَمسَةَ عشرَ بَحرًا قِياسيًا لِلشّعرِ العَربِيِّ، تَتفَرَّعُ عَنهَا فُروعٌ، ويُسمِّي هَذَا كُلَّهُ: علمُ العَروضِ، ثُمَّ يُتبَعُ ذَلكَ بِعلمٍ آخَرَ، هُو علمُ القَوافِيِّ، الخاصُّ بأواخرِ الأبياتِ فِي قَصائِدِ الشّعرِ العَرَبِيِّ.

وأرسَلَ الخَليلُ صَديقَهُ أَبَا عَلِيٍّ ذَاتَ صَباحٍ، فَراحَ يَطوفُ عَلى أهلِ البَصرَةِ، فِي بُيوتِهِمْ، ومَجالِسِهِمْ عَلى شَواطِئِ النَّهرِ وجَداوِلِهِ، يَدعُوهُم باسمِ الخَليلِ لِمُقابَلَتِه عَصرًا فِي مَسجِدِ البَصرَةِ، فَقدْ صَنَعَ الخَليلُ لِلشّعرِ العَرَبِيِّ عِلمَينِ لَمْ يُصنَعْ مِثلُهُمَا مِن قَبلُ. وبَينَ المَدعوِّينَ إلى مَسجِدِ البَصرَةِ كانَ رَجُلانِ عَظيمانِ، أَحَدُهُمَا: ابنُ المُقَفَّعِ الكاتِبُ، والثّاني: أَبُو سُفيانَ الثّوريُّ إمامُ المُحدّثينَ.

وامتلأَ المَسجِدُ عن آخرِه بالنَّاسِ، عُلماءُ وغيرُ عُلماءٍ، مِنَ الشُّيوخِ والكُهولِ والشّبابِ، وراحَ الخَليلُ يَشرَحُ لِلنَّاسِ لأوَّلِ مَرّةٍ، عَلى لَوحٍ

خَشَبِيٍّ كَبيرٍ، مَوازينَ الشّعرِ العَرَبِيِّ، وأَبحُرَهُ، وقَوافيهِ. وحينَ انتَهَى الخَليلُ مِن شَرحِه بإيجازٍ وتَركيزٍ، وَقَد رَانَ الصَّمتُ، وسادَ العَجَبُ، عَلى وُجوهِ الجَميعِ، صَاحَ أَبُو سُفيانَ الثَّوريُّ قائلاً بانفعالٍ عَظيمٍ لِلنّاسِ:

– مَن أرادَ أَنْ يَنظُرَ إلى وَجهٍ مِن ذَهَبٍ، فَلْيَنظُرْ إلى وَجهِ الخَليلِ بنِ أحمَدَ.

وانفَعَلَ النّاسُ يَومَهَا انفعالاً عَظيمًا، ورَاحُوا يُعانِقُونَ الخَليلَ ويُقَبّلونَهُ، ودُموعُ التَّأَثُّرِ بِصَنيعِه لِلشّعرِ تَتَحَدَّرُ عَلى عُيُونِهِم. وخَرَجُوا وَراءَهُ يَتبَعُونَه إلى بَيتِه، ولَمْ يَدخُلْ مَعَهُ بَيتَهُ سِوَى تَلاميذُه مِنَ العُلَماءِ، وأساتذَتِه مِن شُيوخِ المَسجِدِ، ومَعَهُم كَانَ سُفيانُ الثَّوريّ، وابنُ المُقفَّعِ. وقالَ ابنُ المُقفَّعِ مَزهُوًّا فِي ساحَةِ دارِ الخَليلِ:

– أنَا الذي استَفْزَزْتُ عَقلَ الخَليلِ واستَثَرْتُه، ولَوْلايَ لَمَا وَضَعَ لِلمُوسيقَى العَرَبيّةِ كِتابَينِ، ولَوْلايَ لَمَا وَضَعَ لِلشّعرِ العَرَبِيِّ عِلمَينِ. ولاَ بُدَّ لَه أَنْ يُدَوِّنَهُمَا فِي كِتابَينِ.

وفِي تِلكَ اللَّيلةِ، سَهَرَ العُلماءُ الكِبارُ والصِّغارُ فِي بَيتِ الخَليلِ، وسَهَرَ أَهلُ البَصرةِ فِي بُيوتِهِم ومَجالِسِ سَمَرِهِمْ، وَقَدْ انشَغَلُوا

بتَقْطيعِ قَصائدَ منَ الشّعرِ العَرَبيِّ، واكتشافِ أبحُرِهَا القياسيّةِ، مثلَمَا يَنشغلُ الكَثيرُونَ فِي زَمانِنا بحلِّ جَداولِ الكَلماتِ المُتَقاطعَةِ. وحينَ آذنَ اللّيلُ بالانتهاءِ، وصاحَتْ ديكةُ الصَّباحِ، قُبَيْلَ الفَجرِ، سأَلَ المُحدِّثُ سفيانُ الثَّوريّ، الكَاتبَ ابنَ المُقفعِ، عَن رَأيِه فِي الخَليلِ ورَأيِه فِي نَفسِه، فَقالَ ابنُ المُقفَّعِ بانبهارٍ:

- وَمَنْ مِثْلُ الخَليلِ؟ إنَّهُ رَجُلٌ عَقلُه أكبَرُ مِن عِلمِه. أمّا أَنا، فَعِلمِي أكبَرُ مِن عَقلِي. وَلَيْتَنِي كُنتُ مِثلَهُ.

العِلمُ والمَالُ

بينَ العُلماءِ العرَبِ النّابهينَ، كانَ سِيبَوَيْهِ واحدًا من طُلّابِ العِلمِ، فِي حَلقةِ دَرسِ الخَليلِ فِي بَيتِه، ومَعَهُ كَانَ منَ العُلماءِ: الأصمَعِيّ، والنَّضرُ بنُ شُميلٍ، وأَبُو فَيْدٍ السّدوسيّ، وبتَوجيهِ الخَليلِ، استَطاعَ سِيبَوَيْهِ أَنْ يَصيرَ شَيخًا لعُلماءِ النَّحوِ العَرَبِيِّ، وأنْ يَكتُبَ، بتَوجيهِ الخَليلِ كِتابَهُ «الأُم» فِي علمِ النّحوِ والتّصريفِ، والمَعروفِ باسمِ: الكِتَاب.

وذاتَ يومٍ، دَخَلَ «أبو مُحمّد اليَزيدي» على الخَليلِ، فَوَجَدَ **مَجلِسَهُ مُزدحِمًا، والخَليلُ** جَالسٌ فِي صَدرِ المَجلسِ، عَلى وِسَادَةٍ

صَغيرة، مُستَندًا بظَهرِه إلى جذعِ نَخلَةٍ، وَلَم يَجدْ أَبُو مُحَمَّد مكانًا شَاغرًا (خَاليًا) بالقُربِ من صَديقِه الخَليلِ، ورَآهُ الخَليلُ وَاقفًا يَنظُر حواليْه، فَناداهُ قائلاً:

- تَعالَ يا أَبا مُحمّد. هَا هُنَا. عِندِي.

فَقالَ أَبُو مُحمّد:

- أَخافُ أَنْ أُضيّقَ عليكَ جِلْسَتَكَ.

فَقالَ لَهُ الخَليلُ، وَقَدْ وَقَفَ ليُجلِسَهُ بِجانِبِه:

- إنَّ الدُّنيا كُلَّهَا تَضيقُ عَن أَنْ تَسَعَ مُتَبَاغِضَيْنِ. (مُتَخاصِمَيْنِ يكرَهُ أَحدُهُم الآخَرُ) ولكنَّ شِبرًا واحدًا، لاَ يَضيقُ عَن مُتَحابَّيْنِ.

وسَأَلَهُ أَبُو مُحَمَّد، وَقَدْ استَقَرَّ به المَجلِسُ:

- جِئْتُ لأسأَلَكَ سُؤالاً: العِلمُ أَفضَلُ أَمِ المالُ؟ فِي رَأيِي أَنَّ المالَ أَفضَلُ مِنَ العِلمِ، فَالمالُ هُوَ الذي يُسَبِّبُ العِلمَ، ويُثْمِره.

فَقالَ لَهُ الخَليلُ:

- كَلاَّ يَا أَبَا مُحَمَّد، فَالعِلمُ هُوَ الذي يُثْمِرُ المالَ. ولاَ شَيءَ يَعدلُ العِلمَ أَو يَفضُلُه، وَلاَ الوُلاةُ يَفضلُونَ العُلَماءُ.

فَقالَ لَهُ أبُو مُحَمَّد اليَزيدِيّ:

- فَمَا بَالُ العُلماءِ يَزدَحِمُونَ علَى أبوابِ الوُلاةِ، ثُمَّ مَا بَالُ الوُلاةِ لاَ يَطرُقُونَ أبوابَ العُلَماءِ، بَل يَدعُونَهُم إليهِم بإشارةٍ مِنهُم، مَعَ وَاحِدٍ مِن رجالِهِمْ.

فَقالَ لَهُ الخَليلُ:

- يَا أبَا مُحَمَّد. لَقَد عرَفَ العُلماءُ حقَّ الوُلاةِ وواجِبَهُم نَحوَهُمْ، فِي نُصحِهِم وهِدَايَتِهِم. فَسَعَى العُلَماءُ إليهِم ليرشِدُوهُم ويُعلِّموهُم. وجَهِلَ الوُلاةُ حَاجَتَهُم إلى العُلَماءِ وحَقَّهُم عَلَيهِم، وظَنُّوا، وهُمْ فِي ظَنِّهِم مُخطِئُونَ، أَنَّهُم خَيرٌ مِنَ العُلَماءِ لَمْ يَسعَوْا إليهِم. فَكَانَ فِي ذَلِكَ خَرابٌ لأمرِ كَثيرٍ مِنَ الوُلاةِ، لأَنَّهُم لَمْ يَسأَلُوا أَهلَ العِلمِ فِيمَا لاَ يَعلَمُونَه. وَقَدْ قَالَ سُبحانَه: (فاسأَلُوا أَهلَ الذِّكرِ إنْ كُنتُم لاَ تَعلَمُونَ).

وكَانَ تَلاميذُ الخَليلِ، الجَالِسُونَ حَولَهُ، يَكتُبونَ عَلى أَوراقِ البَرْدِيِّ هَذِهِ المُحاوَرَةَ، فَلم يَكُنِ العَرَبُ قَدْ عَرَفُوا بَعدُ صِناعَةَ الوَرَقِ مِنَ الصِّينِيِّينَ.

كسرَةُ خُبز

وذاتَ نهارٍ، اجتَازَتْ طُرُقاتُ البَصرةِ، وقَناطِرُ جَداوِلِها، خُيولٌ فَارِسيّةٌ مُسَرَّجَةٌ، عَلَيها فُرسانٌ فِي ثِيابٍ فارِسِيّةٍ مُزخرَفَةٍ، زَاهِيَةِ الألوانِ، يَقودُهم دَليلٌ مِن أهلِ البَصرَةِ، يَجرِي أمامَ الخَيلِ، إلى بَيتِ الخَليلِ.

وأَقبَلَ عَبدُ الرَّحمنِ قَادِمًا مِنَ البابِ عَلى أَبيهِ، قائِلاً لَهُ وَهُوَ جالِسٌ مَعَ تَلاميذِهِ:

- أَميرُ الأهوازِ بَعَثَ إليكَ بِرُسُلٍ مِن كِبارِ أَصحابِه، فِي كَوكَبَةٍ مِنَ الفُرسانِ.

فَلَم يَزِدِ الخَليلُ عَلى أَنْ قالَ لَه، دُونَ أَنْ يَنْهَضَ مِن مَجلِسِه:

- دَعْهُم يأتونَ إلينَا.

ودَخَلَ رَسولُ أَميرِ الأهوازِ، وراحَ يَنظُرُ حَوالَيْهِ، فَرَأى دَارًا بَسِيطةً مُتَواضِعَةً، وحلقةَ دَرسٍ، يَحُفُّ بِهَا الوَقارُ، وتُحيطُ بِها هَيْبَةُ العِلمِ، فَجَلَسَ صامِتًا حَتّى انتَهَى الدَّرسُ، وعِندَئذٍ قالَ رَسولُ الأميرِ لِلخليلِ:

– أنا رَسولُ الأميرِ سُليمانُ بنُ حَبيبٍ المهلَّبيّ، وَهُوَ، مِثْلُكَ يَنتَمِي إلى قَبيلةِ الأزْدِ. وقَد بَعثَ إليكَ بِهَذَا الصُّندوق، وفيه مائةُ ألفِ درهمٍ، كَيْ تُجهِّزَ بِهَا نفسكَ وأهلكَ، وتأتي بِهِم مَعكَ، وَلَسَوْفَ تُقيمُ بِقصرِ الأميرِ بالأهوازِ، وتُعلِّمَ بَناتَهُ وبَنيه.

وَدهشَ رَسولُ الأميرِ، وهُوَ يرَى الخليلَ يُخرِجُ، مِن خزانةٍ بِجانِبِه، كِسرَةَ خُبزٍ، ويَقولُ لَهُ:

– إنَّهَا زَادي الوَحيدُ فِي كُلِّ وَجبَةٍ، ولَكنَّهَا تَكفي لِسدِّ رَمَقي. ومَا دامَ عِندي مِنهَا، فَلَستُ بِحاجَةٍ إلى أميرِكَ. خُذِ الدَّراهِمَ

وأعِدْهَا إلى أميرِك، فَبِبَابِه شُعراءُ بِحاجَةٍ إلَيهَا. وقُلْ لأميرِكَ: إنّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقِ الخَليلَ إلاَّ لِيُعلِّمَ العُلماءَ، مِمَّن تَراهُمْ حَولي، أمّا صِبيَتُه فَلَهُمْ مُعلِّمُونَ غَيري، وغَيرِ هؤلاءِ العُلماءِ مِن حَولي.

واحمَرَّ وَجهُ رَسولِ الأميرِ خَجَلاً، وغادَرَ دارَ الخليلِ عائدًا بِصُنْدُوقِ الدَّراهِم، مَعَ فُرسَانِه.

وحِينَ خَلَتْ أُمُّ عبدِ الرحمنِ بِزَوجِهَا الخليلِ، راحَتْ تَلُومُه، وتُعاتِبُه، وتُذكِّرُه بِمَا يَنقُصُ البَيتَ مِن طَعامٍ وكِسوَةٍ ونَفقاتِ جارِيَةٍ، فقالَ لَهَا الخليلُ:

– لاَ أُنقِصُ قَدرَ نَفسِي عِندَ اللَّهِ والنَّاسِ. إنّي لاَ أزهَدُ فِي المالِ، ولاَ أكرَهُ النِّعمَةَ، ولاَ أَقبَلُ المالَ إلاّ خالِصًا مِنَ العُبودِيَةِ، ولَنْ أَبيعَ عِزَّةَ نَفسِي، وعَقلِي، وعِلمِي، بِمالِ الأرضِ كُلِّهَا.

وارتَفعَتْ مَنزِلَةُ الخليلِ إثْرَ هَذا المَوقِفِ العَظيمِ، بَينَ أهلِ البَصرَةِ. وخَجِلَ أميرُ الأهوازِ مِن نَفسِه، فَبَعَثَ إليه بالمائةِ ألفِ درهَمٍ خالِصَةً لِوَجهِ العِلم. وسارَعَ الخليلُ بِحجزِ ما يَلزَمُ بَيتَهُ لِعامٍ واحِدٍ، ووزَّعَ بَقيَّةَ المالِ على تَلاميذِه المُغتَربينَ عَن دِيارِهِم، وعلى طُلاّبِ العِلمِ بالبَصرةِ وفُقَرائِهَا. وظَلَّ على عاداتِه الأُولَى، يُعطي الفُقَراءَ أكثَرَ مَا يَصِلُ إلى يَدِه، ويَدَعُ رِزقَ الغَدِ، لِعالِمِ الغَيبِ وَحدَه.

سَنَواتُ الجدبِ

عَلى البَصرَةِ، تَوالَتْ سَنَواتُ جَدْبٍ (جَفاف) قَلَّتْ فِيهَا مِياهُ الرَّيِّ، ونَدُرَ التَّمرُ، وعَزَّت الفَواكِهُ والحُبوبُ، واشتَدَّ الحَالُ عَلى أهلِ البَصرَةِ، وكَثُرَ المَوتُ جُوعًا وعَطَشًا، وتَفَشَّتِ (انتَشَرَت) الأوبِئَةُ، وأَسرَعَ كُلُّ قادرٍ إلى الهِجرَةِ مِنَ البَصرَةِ. وشاعَتِ الأَخبارُ فِي بِلادِ فَارِسَ بِمَا يُلاقيهِ أهلُ البَصرَةِ مِن جُوعٍ وعَطَشٍ، وقيلَ لِلَّيثِ بنُ المُظَفَّر بنُ سَيّار، أميرُ خُرَسانَ، إنَّ الخَليلَ يُوشِكُ عَلى المَوتِ جُوعًا وعَطَشًا، وأَسرَعَ اللَّيثُ بإرسالِ المُؤَنِ من طَعامٍ إلى أهلِ البَصرَةِ، ومَعَهَا كَانَتْ دَعوةٌ لِلخَليلِ، لِيُقيمَ مَعَ اللَّيثِ فِي قَصرِهِ بِخُرَاسانَ، وقالَ رَسولُ الأميرِ اللَّيثِ لِلخَليلِ:

- إنَّ أميرَنَا لاَ يُريدُ إلاّ صَداقَتَكَ وعِلمَكَ، ولاَ يُريدُكَ لِنَفسِهِ ولاَ لِوَلَدِهِ، ولَكَ أَنْ تَعودَ إلى البَصرَةِ، حِينَ تَشَاءُ، فِي أَيِّ وَقتٍ تُريدُهُ.

وقَبِلَ الخَليلُ دَعوةَ أميرِ خُرسَانَ. وأَعَدَّ نَفسَهُ وأَهلَهُ لِلرَّحيلِ عَنِ البَصرَةِ، وكانتْ دماءُ العافِيَةِ قَد دَبَّت فِي أجسادِ أَهلِ البَصرَةِ، فَخَرَجَتِ البَصرَةُ بِأَسرِهَا فِي وَداعِ الخَليلِ، فَقَد تَكونُ رِحلَتُه رِحلَةً بِلاَ عَودَةٍ. وقالَ الخَليلُ لأهلِ البَصرَةِ:

- واللَّهِ يَا أَهلَ البَصرَةِ، لَو وَجَدْتُ فِي بَيتِي، فِي كلِّ يَومٍ، كِسْرَاتِ خبزٍ، لِي ولأهلِي، مَا فارَقتُكُمْ، وأَنتُمْ أَولَى مِنّي بِمَا بَعَثَ بِهِ الأَميرُ إليَّ مِن مَالٍ وزَادٍ.

وبَكَى أَهلُ البَصرَةِ لِفراقِ الخَليلِ، وحَزِنَ العُلماءُ والمَساكينُ لِرَحيلِه، وتَبِعُوا مَوكِبَهُ، إلى أَن غابَتْ بِه الخَيلُ عَن عُيونِهم فِي بِلادِ فارِسَ. ولَم يَرَ أَحدٌ مِن أهلِ البَصرَةِ دُموعَ الخَليلِ، وَهُوَ يَنظُرُ وَراءَهُ، وَهِيَ تَنسَكِبُ (تَتَحدرُ) عَلى خَدِّهِ ولِحيَتِه، وَقَدْ تَقَدَّمَ بِه العُمْرُ.

لِلُّغَةِ جُذورٌ

واستَقبلَ الأَميرُ اللَّيثُ عَبقَرِيَّ البَصرةِ بالحَفاوَةِ، وسَعِدَ بِه الخَليلُ حِينَ وَجدَهُ كَاتبًا وأَديبًا، وبَليغًا. وعَرَفَه، مَعَ الأَيّامِ، تَقيًّا صالِحًا، مُحبًّا لِرَعِيَّتِه. وعِندَئذٍ عادَ لِعَقلِ الخَليلِ فِكرُهُ المُبدعِ. قالَ الخَليلُ لِليثِ ذاتَ نَهارٍ، وهُمَا جَالِسانِ، فِي شُرفَةٍ، تُطِلُّ عَلى بُستانٍ:

- اسمعْ عَنّي أَيُّهَا الأَميرُ: إنّني أُفكِّرُ فِي عَمَلٍ، أَحصرُ بِه كَلامَ العَرَبِ جَميعًا، فَلاَ تَشذُّ عَنهُ كلمةٌ فِي هَذَا العَمَلِ.

وأَخَذَ الخَليلُ يَشرَحُ لِليثِ فِكرَتَه، فَالحُروفُ العَرَبِيّةُ تِسعةٌ وعِشرونَ حَرفًا، ومِنهَا تَتَكَوَّنُ الكَلِماتُ العَرَبِيّةُ: الثُّنائيّةُ، والثُّلاثيّةُ،

والرُّباعيّةُ، والخُماسيّةُ، والسُّداسيّةُ. ومِن تَركيبِ أحرُفِ العَربيّةِ مَعَ بَعضِهَا البَعضِ، يُمكنُ الوُصُولُ إلى سائرِ الاحتمالاتِ المُمكنَةِ، لتَكوينِ الكَلماتِ العَربيّةِ، ثُمَّ نَنظُرَ فيهَا وَاحدًا واحدًا، ونَختَبِرُ: أيُّهَا مَوجودٌ في كَلماتِ العَربِ، وأيُّهَا غَيرُ مَوجُود، ونُحَدِّدُ لَهَا مَعناهَا و مَعانِيهَا، كَمَا عرفَتِ العَربُ هَذِه المَعانِي، لِكُلِّ كَلِمَةٍ.

وسَكَتَ الخَليلُ لَحظَةً، فَقَدْ كانَ يَشعُرُ بالحُمَّى تَسرِي فِي جَسَده، لكِبَرِ سنِّه، ولتَغييرِه لجَوّ بِلاده. وهَمَّ الأميرُ أنْ يَطلُبَ منهُ أنْ يَستَريحَ الآنَ مِنَ التَّفكيرِ، لَكِنَّ الخَليلَ قالَ لَهُ:

- لَقَدْ اكتَشفْتُ، بَعدَ طُولِ تَفكيرٍ واستِعراضٍ لكَلامِ العَرَبِ، أنَّ كُلَّ الكَلماتِ لَهَا جُذورٌ ثُلاثيّةٌ، أَو رُباعيّةٌ، ومَا عَداهَا مِنَ الحُروفِ فَهُوَ زَائدٌ عَليهَا. وسَأَضَعُ لِذَلكَ كُلِّه مَقاييسَ بإذنِ اللَّهِ. إيذَنْ لِي لأستَرِيحَ، وائتِني بطَبيبِكَ.

وفَزِعَ الأميرُ الليثُ، وَصاحَ:

- لَنْ تُصابَ بِكَ العَربِيَّةُ الآنَ، فَهِيَ أحوَجُ مَا تَكونُ إليكَ فِي هَذِه الأيّامِ.

وصَحِبَهُ الليثُ بنفسِه إلى سَريرِه، وسَهِرَ بِجَنبِه مَعَ الطَّبيبِ، يُعالِجَانِه ويُمَرِّضانِه.

أول معجم عربي

شُفيَ الخَليلُ مِن مَرَضِه، وراحَ يُخَطِّطُ لِمَشروعِه العِلميّ الكَبيرِ. بَدأَ بتَرتيبِ الحُروفِ العَرَبيّةِ تَرتيبًا صَوتيًّا، حَسَبَ مَخارجِ هَذِه الحُروفِ، مُحتَذيًا تَرتيبَ الحُروفِ فِي اللُّغَةِ السَّنسكْريتيّة (إحدى لغاتِ الهندِ)، الّتي كانَ الأميرُ الليثُ يَعرفُها، فَبَدَأَ بحُروفِ الحَلْقِ: ع . ح . خ . غ. فالحروفُ اللّهَويّة (الصّادرة عَن اللهاةِ): ق . ك . وتَلاهَا بالحُروفِ الأُخرى حَسَبَ مَخارِجِهَا، وهِيَ: ش . ص . ض . س . ر . ط . د . ت . ظ . ذ . ث . ز . ل . ن . ف . ب . م، ثُمَّ حُروف: و . ا . ي، وهُوَ التَّرتيبُ السَّنسكريتيّ، مَعَ شَيءٍ مِنَ التَّعديلِ.

وارتَكَزَ الخَليلُ، فِي تَبويبِ مُعجَمِه، حَسَبَ الحَرفِ الأوسَطِ فِي الأفعالِ العَرَبيّةِ، وَوفْقَ تَرتيبِه الصَّوتيّ، ومورِدًا كُلَّ الأفعالِ الّتي بِهَا هَذَا الحرفُ مثَل: سَعِل، ونعِم، و: نعَب، و: رعَد.. وهكذَا، وكلَّ المَعانِي المُتَعَدِّدَةَ لِهذِه الأفعالِ، كَمَا وَرَدَتْ فِي كَلامِ العَرَبِ، والأسماءِ ومَعانيهَا المُشتَقَّة منهَا، مثل: ساعِلٌ، ونَعيمٌ، ونَعّابٌ، وغَيرِ المُشتَقَّةِ، مثْلُ: النّعْمَة، والسُّعال، واجتَمَعَ

إليه، في العَمَلِ مَعَهُ، ومعَ الأميرِ بِهَذَا المُعجَمِ المبتكرِ في العَرَبيّة، علماءُ لُغةٍ، وكُتّابٌ، ورُواةٌ مِنَ رُواةِ العَرَبيّةِ الأعراب.

وكانَ هَذَا المعجمُ مَعروفًا بَينَ كُلِّ المُساعدينَ لِلخليلِ في إعدادِه، في فَريقِ عَمَلٍ لُغَويٍّ كَبيرٍ، باسمِ: العَيْنِ، رُبَّمَا لبدئه بِهَا. وقطعَ الخَليلُ شَوطًا كَبيرًا في إعدادِ هَذَا المُعجَم، لَكنَّهُ أَحسَّ بأنَّهُ قَد كَبُر في السِّنِ، وراحَتْ أطرافُه ترتَعشُ، كُلَّما أَمسَكَ بريشَتِه، لِيَغمِسَهَا في المِحْبَرَةِ السَّوداءِ، وصارَ يَشعُرُ بأنَّ عَقلَهُ لم يَعُد يمتلكُ قُوةَ التَّركيزِ التي كانَتْ لَهُ، فأدركَ أنَّ أيّامَهُ في الدُّنيَا باتَتْ مَعدودةً، وأنَّهُ يحنُّ إلى البَصرة، ويتوقُ (يَرغَبُ) إلى حَجِّ بَيتِ اللَّه.

واستأذَنَ الخَليلُ الليثَ في الرَّحيلِ، تَارِكًا لَهُ، ولِفَريقِ العَمَلِ، مُهمَّةَ إنجازِ بَقيَّةِ المُعجَمِ، في ضَوءِ المَنهجِ الذي وَضَعَه لَهُ. فَأذِنَ لَهُ بالرَّحيلِ، وزوَّدَه بالمالِ، والخَيلِ، والفُرسانِ، وَوَدَّعَهُ في مَوكبٍ حافلٍ، عادَ به إلى البَصرةِ، ولَمْ يَكَد الخليلُ يَستَقرُّ بِهَا شُهورًا، حتّى غادَرَها لأداءِ فَريضَةِ الحَجِّ، ثُمَّ عادَ إلى البَصرةِ، وكانَ قَد بَلَغَ مِنَ العُمرِ خَمسةً وسبعينَ عامًا.

عصرُ الخليل

عاشَ «الخليلُ بنُ أحمدَ بنُ عمرو بنُ تَميمٍ الفَراهيدِيّ» في القَرنِ الثّاني الهِجريّ، الثّامنِ الميلاديّ، وعاشَ خَمسينَ عامًا من عُمرِه، في عَهدِ الدَّولةِ الأمويّةِ، وخَمسةً وعِشرينَ عامًا في مَطلَعِ الدَّولةِ العَبّاسيّةِ.

وشَهدَ الخَليلُ خِلالَ حَياتِه الصِّراعاتِ القَبَليّةِ والمَذهَبيّةِ الدّاميةِ، بَينَ الأمويّينَ والعَبّاسيّينَ والعَلَويّينَ والخَوارجِ. وشَهِدَ في أواخرِ عُمرِه تَفاعُلَ الثَّقافَةِ العَربيّةِ البَدويّةِ، مَعَ الثَّقافاتِ الإغريقيّةِ والفارسيّةِ والسَّنسكريتيّةِ الوافدةِ، وشَهِدَ جُهودَ النَّقلةِ مِنَ المُترجمينَ الذينَ أقبَلُوا عَلَى نَقلِ أُصولِ هَذهِ الثّقافاتِ إلى

العَرَبِيّة. وشَهِدَ الإبداعاتِ العَرَبِيّةِ الجَديدةِ فِي عُلومِ الأنسابِ، والحَديثِ، والفقْهِ الحَنَفيّ والمَالكيّ، وعِلمَ الهَيئةِ، والطِّبِّ والكيمياءِ. وشَهِدَ جِدالَ ومُناظراتِ دُعاةِ المَذاهبِ والفرَقِ الإسلاميّةِ فِي البَصرةِ. وشَهِدَ فَقدَ العرَبِ لِمَا كانَ لَهُم من نُفوذٍ غالبٍ فِي الدَّولةِ الأمَويّةِ، ومُشاركةَ الفُرسِ فِي العراقِ، والنَّصارى فِي مصرَ والشَّامِ، فِي الحكمِ العَبّاسيّ. وكانَ الحُكمُ الإسلاميّ يَمتدُّ من وَسَطِ آسيَا فِي بِلادِ مَا وَراءِ النَّهرِ شَرقًا، إلى الأندَلُسِ وبِلادِ المَغرِبِ غَربًا.

لاَ تَبكُوا علَيَّ

وظُهرَ يومٍ، كانَ الخَليلُ يَدخُلُ مَسجِدَ البَصرةِ، شَارِدًا، ومطرقًا، يُفكِّرُ فِي أمرٍ لاَ يَعلَمُه أحدٌ، وكانَتْ تَجرِي بمسجدِ البَصرةِ عمرةٌ لتجديدِه، وعثُرتْ قَدمُ الخَليلِ بخشَبةٍ مُلقاةٍ فِي صَحنِ المَسجِدِ، فاندفَعَ به جَسَدُه إلى الأمامِ، فارتَطمَت جَبهَتُه بأحَدِ أعمِدَةِ المَسجِدِ الرُّخاميّة، وانشَجَّ رأسٌ كانَ يَشعُّ بالذّكاءِ، وتَدحرَجَ الخَليلُ، فِي سُقوطِه، مُضرَّجًا بالدّماءِ. وأسرَعَ النّاسُ إليهِ، فَوَجَدوهُ يَبتسِمُ، ويقولُ لَهُم:

- لاَ تَبكُوا عَلَيَّ. فَوَ اللّهِ مَا فَعَلتُ فِعلاً أخافُ اللّهَ مِنْه على نَفسِي. ولَوْ بَقِيَ عندِي فَضلٌ مِن مَعرِفَةٍ، يُريدُه اللّهُ لِلنّاسِ، لأمَدَّ فِي عُمرِي.

وبكَتِ البَصرةُ كُلُّهَا وهِيَ تُشيّعُه إلى مَثواهُ الأخيرِ بالبَصرةِ، واهتَزَّتْ لِموتِه ديارُ العَرَبِ كُلِّهَا. وكَانَتْ وَفاتُه عامَ مائةٍ وخَمسةٍ وسَبعينَ هِجرِيّةٍ، سَبعمائةٍ وواحدٍ وتِسعينَ ميلاديّةٍ.

* * *

عَن الخَليلِ بنُ أحمدَ كُتِبتِ المَوسوعاتُ العَرَبيّةُ، كَتَبَ عَنهُ الذّهبيُّ فِي «سِيَرِ النُّبلاءِ»، وابنُ النّديمِ فِي «الفهرست»، وابنُ خلّكان في «وفياتُ العيان»، وياقُوت في «معجمُ الأدباء»، والقفطيّ فِي «أنباءِ الرّواة»، والنّوويّ فِي «تَهذيبِ الأسماءِ واللُّغاتِ»، وابنُ الأثيرِ فِي «اللّباب»، والأنباريّ في «نُزهةُ الألباب» والسُّيوطيّ فِي «بُغيةُ الوُعاةِ»، والزُّبيديّ فِي «المُختَصَرِ من تاريخِ اللُّغويّينَ والنّحويّينَ»، وابنُ الجَوزِيّ في «طبقات القرّاء»، والسيرافيّ في «أخبار النّحويّين البَصريّين»، و«المنتخب في كتاب ذَيْل المذيَّل» للطّبريّ، وابن حجرٍ فِي «تَهذيبِ التّهذيبِ»، وابنُ المُعتزّ فِي «طَبقاتِ الشُّعراءِ»، وابن

كثير في «البداية» وابن الأثير في «الكاملِ في التّاريخ»، وطاشَ كُبرِى زاده في «مِفتاحُ السّعادَةِ»، وابنُ شَهبةٍ فِي «طبقات النّحويّين واللّغويّين»، واليافعِيّ فِي «مرآةُ الجنان»، وحَاجِي خَليفة في «كشف الظّنون»، والخوانساريّ فِي «رَوضات الجِنان»، والمامقانِيّ في «تَنقيحُ المقال»، والبَغداديّ فِي «إيضاح المكنون»، والعاملِيّ فِي «أعيان الشيعة»، كَمَا كُتِبَتْ عَنهُ دِراساتٌ فِي مَجَلّاتِ: الأزهَرِ، والرسالةُ، والاعتِدالُ، ولغةُ العَرَبِ، والمَجمَعُ العِلمِيّ العَرَبِيّ، والمُعلّمُ الجَديدُ. ووُضِعَ عَنِ الخَليلِ كِتابَانِ هُمَا: «قِصّة عَبقَرِيّ» ليوسف العش، و«الخليلُ بنُ أحمد» لعبد الحَفيظ أبُو السُّعود. وكَتَبَتْ عَنهُ المَوسوعاتُ العَالَمِيّةُ الأمريكيّةف والإنجليزِيّةُ والفِرَنسِيّةُ والألمانِيّةُ.

* * *

فِي عامِ مائةٍ هِجرِيّةٍ، سبعمائةٍ وثمانيةٍ عشرَ ميلاديّةً، وُلِدَ الخَليلُ ابن أَحمدَ الفَراهيدِيّ، وفِي عامِ أَلفَيْنِ وثمانية عَشَرَ ميلاديّةً، سَتَكونُ ذِكرَى مُرورِ ثَلاثةَ عشَرَ قَرنًا مِنَ الزَّمانِ عَلى: أَبُو العَرَبِيّةِ، وأَبُو الشّعرِ العَرَبِيِّ، وأَبُو المَعاجِمِ العَرَبِيّةِ: الخَليلُ ابنُ أَحمد، ولَعَلَّ العَرَب قَاطبةً مِنَ الخَليجِ إلى المُحيطِ،

يَحتَفلونَ بِهَذِه الذكرَى، فِي مَهرَجانٍ قَومِيّ، نَادرِ المِثالِ، تَحتَفِلُ بِهِ الأُمّةُ العَرَبِيّةُ بِأَسرِهَا، بالبُحوثِ والدّراسات، وإحياءِ تُراثه اللُّغوِيّ، مِن حَمَلَةِ اللُّغَةِ وحُماتِها، مِنَ العَرَبِ والمُستَشرِقينَ، فَقَد كانَ الخَليلُ، ولاَ يَزالُ، طَليعةَ العَباقِرَةِ العَرَبِ الخَالِدينَ، بَينَ العُلَماءِ العَرَبِ أَجمَعينَ.

المطبعة الجديثة
IMAG
للفنون المطبعية
Imprimerie Moderne des Arts Graphiques

الخليل

الخليل بن أحمد الفراهيدي عالم عربي مسلم، عاش في القرن الثامن الميلادي. يعده العرب مَعْلما لعلماء العربية. ابتكر لأول مرة علامات التشكيل للحروف العربية، ووضع لأول مرة قواعد لأنغام الموسيقي وإيقاعاتها. واكتشف لأول مرة موازين الشعر العربي وأبحره وقوافيه، وابتكر فكرة الجذور للكلمات العربية ووضع على ضوئها أول معجم عربي بعنوان: العين. إنها قصة تثير الفخار، يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة:

1 - ابن النفيس
2 - ابن الهيثم
3 - البيروني
4 - جابر بن حيان
5 - ابن البيطار
6 - ابن بطوطة
7 - ابن سينا
8 - الفارابي
9 - الخوارزمي
10 - الإدريسي
11 - الدمبري
12 - ابن رشد
13 - ابن ماجد
14 - القزويني
15 - ابن يونس
16 - الخازن
17 - الجاحظ
18 - ابن خلدون
19 - الزهراوي
20 - الأنطاكي
21 - ابن العوام
22 - الطوسي
23 - الكاشي
24 - الوزان
25 - ابن الرزاز
26 - تقي الدين
27 - الرازي
28 - الكندي
29 - الخليل
30 - ابن حمزة
31 - الزرنوجي
32 - يوحنا بن ماسوية
33 - ياقوت الحموي
34 - ثابت بن قرة
35 - ابن ملكا
36 - ابن الشاطر

432

© Editions Anep
ISBN: 978-9947-21-333-9
Dépôt légal: 1528-2007